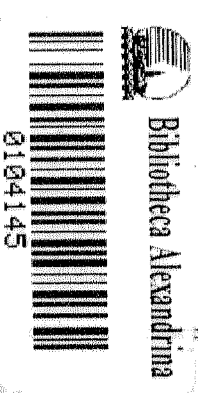
جان ماري غوستاف لوكلوزيو



سِحْرٌ وأشياءُ أُخْرَى

ترجمة: عماد محمود موعد

القصة القصيرة العالمية ١٩

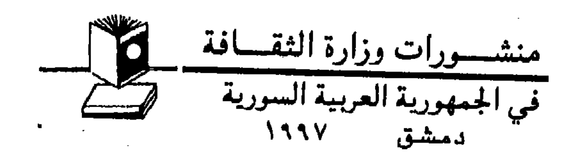




جان ماري غوستاف لوكلوزيو

سِحْرٌ
وَأَشْيَاءُ أُخْرَى

ترجمة: عماد محمود موعد



العنوان الأصلي للكتاب :

Nouvelles
Choisies
de L'auteur
Le Clézio

سحر وأشياء أخرى= Nouvelles chosies de L'auteur Le Clezio/
جان ماري غوستاف لوكلوزيو؛ ترجمة عماد الدين موعد . -
دمشق : وزارة الثقافة، ١٩٩٧ . - ١٤١ص؛ ٢٤سم . -
(القصة القصيرة العامية؛ ١٩).

١- ٨٤٣ ف ل و ك س ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- لوكلوزيو ٥- موعد ٦- السلسلة
- مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ٦٦٩/ ٥/ ١٩٩٧

القصة القصيرة العالمية
« ١٩ »

منذ روايته الأولى «المحضر الرسمي» ، عام ١٩٦٣ ، إلى روايته «نجمة تائهة» عام ١٩٩٢ ، مروراً بـ«الصحراء» ، يظل لوكلوزيو من أكثر الكتاب الفرنسيين إثارةً للاهتمام .

ولد جان ماري غوستاف لوكلوزيو في نيس بجنوب فرنسا عام ١٩٤٠ ، وهو ابن لأسرة تعود أصولها لإقليم بريتاني ، هاجرت إلى جزر موزيس في القرن الثامن عشر . تابع دراسته في الكلية الأدبية الجامعية في نيس حيث حصل على دكتوراه في الآداب .

وعلى الرغم من سفره الدائم ، لم يتوقف لوكلوزيو عن الكتابة ، منذ أن كان في السابعة من عمره . لكنه لم ينشر إلا اعتباراً من عام ١٩٦٣ ، مع صدور روايته «المحضر الرسمي» التي حصلت على جائزة رنودو . كذلك حصل في عام ١٩٨٠ على جائزة الأكاديمية الفرنسية عن روايته «الصحراء» ، التي استلهم فيها البيئة الصحراوية المغربية . تزيد كتبه ، اليوم ، عن عشرين .

يأتي أبطال لوكلوزيو من هامش المجتمع ، حاملين تمردهم ضده ، وضد انغلاقه ضد الحضارة اللاإنسانية ، يحملون نشوة هؤلاء الهاربين من المدينة المعاصرة ، عائدين إلى الأصول الإنسانية . يفتش لوكلوزيو ، من خلالهم ، عن الصدق ، عن أحلام النقاء . لأجل ذلك ، ربما كان من أكثر الكتاب قدرة على اختراق العالم الداخلي للصغار . يعبر عن تذوقه للترحال في الأرض ، عن حبه للنساء ، عن حقده على المدينة التي تطحن المشاعر الإنسانية ، وعن بغضه لكل الأشكال المعاصرة لإذلال الإنسان من قبل

الإنسان . كل ذلك في إطار يحتفي بالأشياء البسيطة ، ينبش الماضي فيزيده سحراً وغموضاً ، يزاوج بين السرد والشعر ، فتضيع الحدود بين الأشكال الأدبية .

تضم هذه المجموعة سبعة قصص وحكايات تعود إلى ثلاث مجموعات مختلفة ، متطلعة إلى تقديم شيء عن هذا الكاتب ، وأن تصبح بطاقة دخول إلى عالمه ، إلى عالم يزاوج الواقع والخيال ، والقصة بالشعر .



ذلك الذي لم ير البحر...

أخذ هذا النص من مجموعة «موندو وقصص أخرى»

كان اسمه دانييل، وكم ود أن يكون اسمه سندباد. لأنه كان قد قرأ مغامراته في كتاب ذي غلاف أحمر، يحمله دائماً معه، في الصف وفي عنبر النوم. أظن أنه لم يقرأ غيره. لم يكن يتكلم عنه إلا في أحيان قليلة، حين يطلب منه ذلك. تلمع عيناه بقوة أكثر، وتظهر فجأة علامات الانتعاش على وجهه الحاد. كان فتى لا يتكلم كثيراً، ولا يشترك في أحاديث الآخرين، إلا إذا كان الحديث يدور عن البحر أو عن السفر. معظم الناس هم أناس أرضيون. ولدوا على الأرض، والأرض وأشياؤها هي التي تهمهم. حتى أن البحارة هم، غالباً، أناس من الأرض يحبون البيوت والنساء، يتكلمون بالسياسة وعن السيارات. أما دانييل كان يبدو كما لو أنه من جنس آخر. يمل من الأشياء الأرضية، المحلات والسيارات والموسيقا والأفلام وبطبيعة الحال من دروس المدرسة الثانوية. لم يكن يقول شيئاً، حتى أنه لم يكن يتثاءب مظهراً ملله. لكنه كان يبقى في مكانه، جالساً على مقعد، أو على درجات السلم، أمام الباحة محدقاً في الفراغ. كان تلميذاً دون المتوسط، يحصل بصعوبة، في كل فصل، على ما

يلزمه من علامات النجاح. عندما يلفظ مدرس ما اسمه، ينهض ويسرد درسه، ثم يجلس فينتهي كل شيء. كان يبدو عليه، كما لو أنه ينام بعيون مفتوحة.

حتى حين كنا نتكلم عن البحر، فإنه لم يكن يهتم بذلك. كان ينصت للحظة، ويسأل سؤالين أو ثلاثة، ثم يتبين أن ما نتكلم عنه ليس، حقيقة، هو البحر، وإنما الاستحمام وصيد الأعماق والشواطئ وضربات الشمس. فيذهب ليعود إلى جلوسه على مقعده، أو على درجات السلم، محدقاً في الفراغ. ليس عن هذا البحر يريد أن يسمع. وإنما عن بحر آخر، لا نعرف مكانه.

كان ذلك قبل أن يختفي، قبل أن يغادر. لم يكن أحداً يتخيل بأنه سيغادر في يوم من الأيام، أريد أن أقول، أن يغادر دون عودة، كان فقيراً، يملك والده مزرعة صغيرة، على بعد بضع كيلو مترات من المدينة، كان يرتدي الصدارة الرمادية الخاصة بالطلبة الداخليين، فهو لا يستطيع العودة إلى منزله كل مساء، لأن عائلته كانت تقيم بعيداً. كان له ثلاثة إخوة أو أربعة أكبر منه، لا نعرفهم.

كان بلا أصدقاء، لا يعرف أحداً، ولا يعرفه أحد. ربما كان يفضل ذلك كي لا يكون له صلة بأحد. كان له وجه غريب حاد، بعينين سوداوين جميلتين لا مباليتين.

لم يكن قد قال شيئاً لأحد. لكن بالتأكيد، كان قد حضر كل شيء لهذه اللحظة، حضر كل شيء في رأسه، يتذكر كل الطرق والخرائط، وأسماء المدن التي سيجتازها. ربما حلم بأشياء كثيرة، يوماً بعد يوم، وكل ليلة، وهو مستلقٍ على سريره في العنبر، فيما

الآخرون يمزحون ويدخنون سجائرهم خفية. فكر بالأنهار التي تنحدر بهدوء نحو مصباتها، بصرخات النوارس، بالريح، وبالعواصف التي تصفر فوق صواري السفن، وبصفارات المنارات.

غادر في بداية الشتاء، تقريباً في منتصف أيلول. عندما استيقظ الطلاب الداخليون، في العنبر الكبير الرمادي، كان قد اختفى. أدركوا ذلك مباشرة، منذ أن فتحوا عيونهم، لأن السرير لم يكن مستعملاً. الأغطية مسحوبة بعناية، وكل شيء كان مرتباً. قالوا فقط: «عجباً. . غادر دانييل. .» دون أي دهشة، لأنهم كانوا يعرفون، ولو قليلاً، بأن ذلك سيحدث. لكن أحداً لم يقل شيئاً آخر، لأننا لم نرد أن يمسكوا به.

حتى التلاميذ الأكثر ثرثرة في الصف المتوسط لم يقولوا شيئاً. على كل حال، أيستطيعون أن يقولوا شيئاً؟ لا أحد يعرف شيئاً. لوقت طويل، كان يهمس في الباحة أو أثناء دروس اللغة الفرنسية، لكن ذلك لم يكن سوى عبارات مقتضبة، معانيها لم تكن معروفة إلا من قبلنا.

«أتعتقد أنه قد وصل الآن؟»

«أتعتقد؟ ليس بعد، ذلك بعيد، أنت تعلم». .

«غداً؟»

«نعم، ربما». . .

الأكثر جرأة قالوا:

«ربما الآن قد وصل إلى أمريكا». . .

والمتشائمون:

«ربما سيعود اليوم».

على العكس من صمتنا، فإن القضية قد أثارت ضجة في المستويات العليا. فقد استدعي المدرسون والمراقبون، بشكل منتظم إلى مكتب المدير، وأيضاً إلى البوليس. من وقت إلى وقت، كان المحققون يستجوبون التلاميذ، واحداً بعد واحد، محاولة منهم لانتزاع سر القضية.

بشكل طبيعي، تكلمنا عن كل شيء، ما عدا ما نعرفه، عن البحر. تكلمنا عن الجبال وعن المدن وعن الفتيات وعن الخزائن وكذلك عن المتسكعين سارقي الأطفال وعن الفرقة الأجنبية. قلنا ذلك من أجل تضليل التحقيق. أصبح المدرسون والمراقبون أكثر عصبية، مما جعلهم مزعجين.

الضجة الكبيرة استمرت عدة أسابيع، عدة أشهر. كان هناك إعلانا بحث أو ثلاثة في الجرائد، مع العلامات المميزة لدانييل وصورة لا تشبهه. بعد ذلك، كل شيء هدأ فجأة، لأننا قد تعبنا من هذه القصة. ربما لأننا أدركنا بأنه لن يعود أبداً.

التأمت آلام والدي دانييل، لأنهما كانا فقيران جداً، ولأنه لم يكن لديهما شيء آخر يستطيعان فعله. رجال الشرطة حفظوا القضية، قالوا ذلك بأنفسهم، مضيفين أشياء، أعادها المدرسون والمراقبون، كما لو أنها كانت أشياء عادية جداً، في حين بدت لنا أشياء مثيرة. قالوا إن هناك عشرات الآلاف من الأشخاص يختفون

كل سنة دون أن يتركوا أي أثر، ودون أن نجدهم. المدرسون والمراقبون كانوا يرددون هذه العبارة الصغيرة بهز أكتافهم، كما لو أنه كان أتفه شيء في العالم، أما نحن، فحين كنا نسمعها، كانت تجعلنا نحلم، بدأ ذلك في أعماقنا كحلم خفي فتان لم ينته بعد.

لابد أن يكون دانييل، قد صعد ليلاً إلى أحد قطارات البضائع الطويلة، الذي سار نهاراً وليلاً، لوقت طويل. فقطارات البضائع تسير -بشكل خاص- في الليل، لأنها طويلة جداً، ولأنها تنتقل ببطء من عقدة حديدية إلى أخرى. نام دانييل على الأرضية اليابسة، ملفوفاً بقطعة قديمة من نسيج الأكياس. كان دانييل ينظر، من خلال البوابة، إلى الدروب المضاءة، حين تباطأ القطار وتوقف صاراً على أرصفة البضائع. فتح الباب وقفز على السكة الحديدية، وركض إلى أن وجد ممراً. لم يكن يحمل سوى كيس الشاطئ الأزرق الذي كان يحمله معه دائماً، وضع في داخله كتابه الأحمر القديم.

الآن، أصبح طليقاً، وكان يشعر بالبرد. قدماه تؤلمانه، بعد كل هذه الساعات التي قضاها في عربة القطار. كان الوقت ليلاً، والسماء تمطر. سار دانييل بأسرع ما يستطيع، كي يبتعد عن المدينة، دون أن يعرف أين سيذهب. كان يسير إلى الأمام، بين جدران الحظائر، على الطريق المضاء بالأضواء الصفراء للفوانيس. لا أحد هنا، لم تكن هناك أسماء مكتوبة على الجدران. إلا أن البحر لم يكن بعيداً، خمن دانييل بأنه في مكان ما على الجانب الأيمن، مخبأ وراء الهياكل الإسمنتية الكبيرة، في الطرف الآخر من الجدران. مغلفاً في الليل.

في النهاية، شعر دانييل بالتعب من المشي. كان قد وصل إلى الريف، والمدينة تلمع، بعيداً، خلفه. كان الليل مظلماً، ولا تمكن رؤية الأرض والبحر. بحث دانييل عن مكان يلتجأ إليه من المطر والريح، فدخل إلى كوخ خشبي على طرف الطريق. مكث فيه لينام حتى الصباح، لم ينم ولم يأكل منذ أيام، فقد كان يربض خلف باب عربة القطار يترصد ما حوله، طوال الوقت. كان يعلم بأنه لا يجب أن يلتقي برجال الشرطة. لذلك اختبأ في عمق الكوخ الخشبي، قضم قليلاً من الخبز، ثم نام.

عندما استيقظ، كانت الشمس تملأ السماء. خرج من الكوخ، ومشى عدة خطوات، رامشاً عينيه. وعلى طريق يؤدي إلى الكثبان، وضع دانييل خطواته. كان قلبه يخفق بقوة أكبر، لأنه كان يعرف بأن البحر في الطرف الآخر، بالكاد على بعد مئتي متر. ركض على الطريق، وتسلق منحدر الرمل، أما الريح فكانت تصفر أكثر فأكثر، تحمل معها ضجة ورائحة مجهولة. ثم وصل أخيراً إلى قمة الكثيب. وفي لمحة عين. . . رآه.

كان هنا، في كل مكان، واسعاً، يتعالى كجبل، لامع بلونه الأزرق، عميق، قريب جداً، بأمواجه العالية، التي تتقدم نحوه.

«البحر. . . البحر. . .» ردد دانييل في داخله، دون أن يتجرأ على قول شيء بصوت عال. ظل كما هو، دون أن يستطيع الحركة، أصابعه متباعدة، لم يستطع أن يصدق بأنه نام بجانبه. كان يستمع إلى الضجة الخافتة للأمواج المتلاعبة على الشاطئ. فجأة، اختفت الريح، وسطعت الشمس على البحر مشعلة الضوء على ذرا

الأمواج. كان رمل الشاطئ رمادياً، أملس، تجتازه مسيلات ماء الأمواج، وتغطيه مستنقعات عريضة، تعكس لون السماء.

في أعماقه، ردد دانييل الاسم الجميل عدة مرات:

«البحر، البحر، البحر»....

كان رأسه مليئاً بالصخب والنشوة. كان يرغب في الكلام، في الصراخ، لكن حلقه لم يسمح له بتمرير صوته، لذا كان يجب أن ينطلق، صارخاً، رامياً بعيداً كيسه الأزرق المعفر بالرمل، كان يجب أن ينطلق محركاً ذراعيه وساقيه، كشخص يجتاز شارعاً عريضاً. قفز فوق الأعشاب، مترنحاً فوق الرمل الجاف في أعلى الكثيب. خلع حذاءه وجوربيه، بأقدام عارية تابع الركض بسرعة أكبر، دون أن يشعر بوخزات الشوك.

كان البحر بعيداً، في الطرف الآخر من الرمل. يلمع تحت الضوء، مغيراً لونه ومظهره، من واسع أزرق، إلى رمادي، إلى أخضر، إلى شبيه بالأسود، رصيف رملي أمغر، زبد الأمواج الأبيض. لم يكن دانييل يعلم بأن البحر بعيد. فتابع جريه، بذراعين مشدودتين إلى جسده، وبقلب يخفق بكل قوته في صدره. الآن يشعر بأن الرمل قاس تحت قدميه كالأسفلت، رطباً وبارداً. وبما أنه كان يقترب، أصبح صخب الأمواج أكثر علواً، يملأ كل الأمكنة كصافرات البواخر. في البدء يكون هادئاً وبطيئاً ثم يصبح عنيفاً ومقلقاً كصوت القطارات على الجسور الحديدية. إلا أن دانييل لم يكن خائفاً، تابع جريه بأسرع ما يستطيع، إلى الأمام في الهواء البارد، دون أن ينظر إلى أي شيء آخر. عندما لم يبق إلا بضعة أمتار

عن الزبد، شم رائحة الأعماق وتوقف. كان يخترق أحشاءه ألم حاد، وكانت الرائحة القوية للماء المالح تمنعه من أن يستعيد نفسه.

جلس على الرمل المبلول، يحدق إلى البحر، يصعد بنظراته أمامه، إلى وسط السماء. كان قد فكر كثيراً في هذه اللحظة، كان قد تخيل كثيراً اليوم الذي سيراه فيه، حقيقة، لا كما في الصور أو في السينما، وإنما حقيقياً، البحر كله، معروض حوله، مختالاً بأمواجه العالية التي تنقض على الشاطئ وتتكسر، غيوم الزبد، رذاذ المطر في ضوء الشمس، وفي البعيد ذاك الأفق المقوس كأنه جدار أمام السماء. . . . كان قد اشتهى كثيراً هذه اللحظة التي يفقد فيها قواه، كما لو أنه سيموت، أو أنه سيغفو.

كان ذلك البحر، بحره، الآن له وحده، يعرف بأنه لن يستطيع أن يغادره أبداً. ظل دانييل على الشاطئ مستلقياً على الرمل القاسي، منتظراً، لوقت طويل، صعود البحر على الشاطئ، كي يلمس قدميه العاريتين.

ابتدأ المد. وثب دانييل على قدميه، واستعدت عضلاته للهرب. في البعيد على الصخور السوداء البارزة، كانت الأمواج تتكسر، صاخبة كالرعد. إلا أن الماء لم يعبئ قوته بعد. كان البحر يتكسر، يفور على الشاطئ، لا يصل إلا زحفاً. كان الزبد الخفيف يحيط بقدمي دانييل، يحفر أخاديد حول عقبيه، في البداية، لسع الماء البارد أصابع قدميه، وعرقوبيه، إلا أنه فيما بعد، لم يعد يشعر بشيء.

في اللحظة التي ابتدأ فيها المد، بدأت الغيوم تعصف في الأفق، وبدأت الغيوم تتجمع في السماء. إلا أنها كانت غيوماً مجهولة، مشابهة لزبد البحر، أما الملح، فقد كان يسافر مع الريح كحبات الرمل. لم يعد دانييل يفكر بالهرب. بدأ يمشي على طول الشاطئ، على آثار الزبد. في كل موجة كان يشعر بأن الرمل يفتل بين أصابع قدميه المتباعدة ثم يرتد. في البعيد، كان الأفق يتضخم وينخفض كأنه كان يتنفس ملقياً أنفاسه نحو الأرض.

كان دانييل عطشاً. أخذ في باطن يديه قليلاً من الماء، وشرب جرعة منه. حرق الملح فمه ولسانه، إلا أن دانييل تابع الشرب، لأنه أحب طعم البحر. كان قد فكر كثيراً بهذا الماء، ماء لا حدود له، ماء يمكن أن يشرب منه طوال الحياة. . . . رمى المد الأخير، على الشاطئ، قطع من الخشب والجذور، شبيهة بالعظام الكبيرة. الآن يستعيدها الماء بهدوء، ويرفعها إلى الأعلى قليلاً، مع الأشنيات الكبيرة السوداء.

مشى دانييل على الشاطئ، محدقاً بنهم إلى كل ما حوله، كأنه يريد أن يعرف في لحظة واحدة، كل ما يستطيع البحر أن يطلعه عليه. يأخذ في يديه طحالب لزجة وقطعاً من الصدف، يحفر في الطين، يمشي على يديه وقدميه، على الرمل المبلل، باحثاً في كل مكان. كانت الشمس قاسية وقوية في السماء، أما البحر فقد كان يهدر دون توقف.

من وقت لآخر، كان دانييل يقف في وجه الأفق، محدقاً في الأمواج العالية التي تحاول أن تعبر فوق الصخور البارزة. يتنفس

بكل قوته، كي يستنشق النسمات، كما لو أن البحر والأفق ينفخان رئتيه وبطنه ورأسه، وكما لو أنه أصبح عملاقاً. ينظر إلى الماء القاتم البعيد، هناك حيث لا توجد أرض ولا زبد، وإنما سماء طليقة فحسب. كان يتكلم إلى البحر، بصوت منخفض، كما لو أنه يستطيع سماعه، كان يقول:

«تعال... اصعد إلى هنا... تعال»...

«يالك من جميل، ستأتي لتغطي كل الأرض، كل المدن، ستصعد إلى أعالي الجبال»...

«تعال، مع أمواجك، اصعد، اصعد... من هنا، من هنا»...

ثم يتراجع، خطوة فخطوة، إلى أعلى الشاطئ. وهكذا، تعلم سلوك الماء الذي يصعد، ويعلو، ويمتد كالأيدي على طول الأودية الرملية الصغيرة. السرطانات الرمادية تركض أمامه، رافعة ملاقطها، خفيفة كالحشرات. الماء الأبيض يملأ الثقوب الغامضة، ينظف الأنفاق السرية. يصعد قليلاً إلى أعلى مع كل موجة، يوسع مساحاته المتحركة. أما دانييل فقد كان يرقص أمامه، كالسرطانات الرمادية، يركض باتجاه قليل الميلان، رافعاً ذراعيه، والماء يصعد، يقرص عقبيه. بعد ذلك، نزل دانييل، وبدأ يحفر أنفاقاً في الرمل كي يصعد البحر بشكل أسرع، يدندن كلامه من أجل أن يساعده في القدوم:

«هيا، اصعد، هيا أيتها الأمواج، اصعدي أعلى، تعالي أعلى، هيا»....

وصل الماء إلى حزامه، إلا أنه لم يكن يشعر بالبرد أو بالخوف. ملابسه مخضلة بالماء، ملتصقة بجلده، وشعره ينزل إلى عينيه كالأشنيات. كان البحر يغور من حوله، يتراجع بقوة، مما دعا دانييل، إلى التمسك بالرمل، كي لا يقع على ظهره، ثم انقض البحر من جديد دافعاً إياه إلى أعلى الشاطئ.

كانت الأشنيات الميتة تجلد ساقيه، تشابك عرقوبيه، فينزعها دانييل، كما لو أنه ينزع الأفاعي قاذفاً إياها في البحر، صارخاً:

«أغ . . . أغ» . . .

لم يكن ينظر إلى الشمس، ولا إلى السماء. حتى أنه لم يكن يرى الشاطئ البعيد، وظلال الأشجار. لم يكن هناك أحد، لم يكن هناك إلا البحر، أما دانييل فقد كان طليقاً.

فجأة بدأ البحر يصعد بشكل أسرع، وبدأ يعلو فوق الصخور الناتئة، وصارت الأمواج تأتي من الأعماق، دون أن يردها شيء. كانت عالية وكبيرة، مائلة قليلاً، مع ذرى يتصاعد منها البخار، وجوف أزرق قاتم يتعمق في أسفلها، يزنرها الزبد. وصلت الأمواج سريعة جداً، بحيث لم يبق لدانييل، الوقت الذي يسمح له بالالتجاء بعيداً، أدار ظهره ليهرب، فلمست موجة كتفيه، عابرة فوق رأسه. بغريزته، شبث دانييل أصابعه في الرمل، وتوقف عن التنفس، سقط الماء عليه، بصخب يشبه صخب الرعد والزوابع، مخترقاً عينيه وأذنيه وأنفه.

زحف دانييل نحو الرمل الجاف، باذلاً جهوداً كبيرة لذلك. كان مصاباً بالدوار بحيث أنه بقي للحظة مستلقياً على بطنه بين

خطوط الزبد، دون أن يتمكن من الحركة. إلا أن الأمواج تتابعت، هادرة، تزداد ذراها علواً، وأجوافها تتعمق كالكهوف. لذلك ركض دانييل مبتعداً عن البحر، وجلس على رمل الكثبان، في الجانب الآخر من حاجز الفوقس(1). في بقية النهار، لم يقترب من البحر. إلا أن جسده كان يرتعش، وطعم الملح يحرق جلده وجوفه، وفي أعماق عينيه اختبأ ألق الأمواج.

في الطرف الآخر من الخليج، كان هناك رأس صخري أسود، مليء بالكهوف. فيه أمضى دانييل الأيام الأولى، عند وصوله للبحر. كان كهفه، عبارة عن تجويف صغير في الصخور السوداء، مفروش بالحصى الناعم وبالرمل القاتم. أمضى دانييل فيه كل هذه الأيام، دون أن يغادر البحر عينيه.

عندما كان ضوء الشمس يبدو شاحباً وقاتماً، وعندما -بالكاد- يكون الأفق مرئياً كما لو أنه خيط في الألوان المشوشة للسماء والبحر، كان دانييل ينهض، ويخرج من كهفه. يتسلق الصخور السوداء، من أجل أن يشرب من ماء المطر المتجمع في البرك الصغيرة. كانت طيور البحر الكبيرة تأتي، أيضاً، كانت تحلق حوله، بصرخاتها الطويلة، فيحييها دانييل بصفيره. في الصباح، حين يكون البحر منخفضاً، تتكشف الأعماق الغامضة. برك من الماء الداكن، مسيلات تتساقط بين الصخور، طرق زلقة، تلال من الأشنيات الحية. فيترك دانييل الرأس البحري وينزل على طول الصخور، إلى وسط المساحات التي انسحب منها البحر. كما لو أنه وصل إلى وسط البحر نفسه، إلى بلاد غريبة، لا توجد إلا لبضع ساعات.

عليه أن يسرع، الخطوط السوداء للصخور الناتئة قريبة جداً، كان دانييل يسمع هدير الأمواج، بصوتها المنخفض، وخرير المسيلات. هنا، لا تلمع الشمس، لوقت طويل. سيعود البحر قريباً ليغطيها بظله، كان الضوء ينعكس عليها، بعنف، دون أن يستطيع تدفئتها. كان البحر يظهر العديد من أسراره، إلا أنه كان من الواجب معرفتها، قبل أن تختفي. كان دانييل يركض على صخور قاع البحر، بين غابات الأشنيات. كانت الرائحة القوية تتصاعد من البرك والأودية السوداء، تلك الرائحة التي لا يعرفها الناس، إلا أنها تصيبهم بالثمل.

في البرك الكبرى، بالقرب من البحر، كان دانييل يبحث عن السمك والقريدس والأصداف. يغمر ذراعيه في الماء بين أكوام الأشنيات، وينتظر أن تدغدغ كائنات البرك أصابعه، فيلتقطها. في البرك، كانت أزهار برقوق البحر البنفسجية والرمادية والحمراء بلون الدم، تفتح وتغلق تويجاتها.

على الصخور الملساء، كانت تعيش الصحنيات[٢] البيضاء والزرقاء، والدود الشاطئي البرتقالي، والمحار ذو الصدف الطويل والمدبب، أم الخلول[٣]. في قاع البرك، كان الضوء يلمع أحياناً على الظهر العريض لسمك التنة، أو على قواقع عرق اللولو المتغيرة الألوان. كانت تظهر فجأة، بين أوراق الأشنيات قوقعة فارغة متقزحة كغيمة أذن بحر[٤] عجوز، كشفرة سكين، كالشكل الأمثل لصدفة سان جاك. كان دانييل ينظر إليها طويلاً، عبر صفاء الماء، كان كما لو كان هو أيضاً يعيش في البركة، في عمق شق صغير، مفتوناً منتظراً ليل البحر.

لأجل الطعام، كان يصطاد الصحنيات. كان يلزم الاقتراب منها، دون أي صوت، كيلا تلتحم بالحجارة. ومن ثم ينزعها بركلة، بضربها بإبهام القدم. إلا أنه غالباً، ما تسمع صوت أقدامه، أو صوت تنفسه، فتلتصق على الصخور الملساء، مصدرة قرقعة متتابعة. حين يأخذ دانييل ما يكفيه من الجمبري والمحار، يضعه في تجويف مليء بالماء لإحدى الصخور، كي يطهوها فيما بعد في علبة كونسروة على نار الفوقس. ثم يذهب بعيداً، تماماً إلى طرف البحر، حيث تتكسر الأمواج. وحيث يعيش صديقه الأخطبوط.

كان هو الذي عرفه دانييل مباشرة، منذ اليوم الأول لوصوله أمام البحر، قبل أن يعرف طيور البحر والبرقوق. جاء إلى الأمواج التي تتكسر حين تسقط على نفسها، في اللحظة التي يقف فيها البحر والأفق عن الحركة، وعن التموج، وحين تبدو التيارات الكبيرة الداكنة كما لو أنها تمسك بنفسها قبل أن تقفز. دون شك، كان المكان الأكثر سرية في العالم، لا يسطع ضوء النهار فيه إلا للحظات. كان دانييل يمشي ببطء، متمسكاً بجدران الصخور الملساء، كما لو أنه كان ينزل إلى قلب الأرض. كان قد رأى البرك الكبرى بمياهها الثقيلة، حيث تتحرك ببطء الأشنيات الطويلة، ظل ساكناً، والوجه يكاد يلمس السطح. كان قد رأى مجسات الأخطبوط أمام جدران البركة. كانت تخرج من شق بالقرب من القاع، شبيهة بأبخرة، تنزلق بهدوء على الأشنيات. حبس دانييل نفسه، ناظراً إلى المجسات التي كانت بالكاد تتحرك، ملتفة بألياف الأشنيات.

بعد ذلك خرج الأخطبوط. كان الجسم الطويل الإسطواني يتحرك بحذر، تتهادى مجساته في الأمام. تحت الضوء المنكسر

للشمس الزائلة، كانت عيونه الصفراء تلمع كالمعدن تحت الحواجب البارزة. ترك مجساته ذات الأقراص المتنفسجة تطفو للحظة، كما لو أنه كان يبحث عن شيء ما. ثم رأى ظل دانييل منحنياً فوق البركة، فقفز إلى الخلف شاداً مجساته، مطلقاً غيمة رمادية زرقاء.

كان دانييل في كل يوم، يصل إلى شاطئ البركة، قريباً من الأمواج. ينحني فوق الماء الشفاف، وينادي الأخطبوط بهدوء. يجلس على الصخرة، تاركاً ساقيه العاريتين تغوصان في الماء، أمام الشق الذي يسكن فيه الأخطبوط، وينتظر دون أن يتحرك. بعد لحظة يشعر بالمجسات التي تلامس بخفة جلده، ملتفة حول عرقوبيه. يداعبه الأخطبوط بحذر، أحياناً، بين أصابعه، وتارة تحت باطن قدميه، فيضحك دانييل.

يقول دانييل: «يوم سعيد ويات» كان اسم الأخطبوط ويات، إلا أنه بالطبع، لم يكن يعرف ذلك. كان دانييل يكلمه بصوت منخفض، كي لا يرعبه. يطرح عليه أسئلة عما يجري في قاع البحر، عن ذلك الذي يمكن رؤيته تحت الأمواج. لم يكن ويات يجيب، إلا أنه كان يتابع مداعبة قدمي وعرقوبي دانييل بلطافة، كما لو أنه يداعب شعره.

أحبه دانييل كثيراً. لم يكن يستطيع رؤيته لوقت طويل، لأن البحر سرعان ما يصعد. حين يكون الصيد وفيراً، كان دانييل يحمل إليه سرطاناً أو سمك القريدس، تاركاً إياها في البركة. كانت المجسات الرمادية تبرز كالسياط، تمسك الفرائس، آخذة إياها نحو الصخرة. لم يكن دانييل يرى أبداً الأخطبوط وهو يأكل. كان يبقى

دائماً مختبئاً في ثغره المظلم ساكناً، فيما مجساته تموج أمامه. ربما كان كدانييل، ربما كان قد سافر طويلاً، كي يجد منزله في قاع البركة، ربما كان ينظر إلى السماء الصافية عبر الماء الشفاف.

حين ينخفض البحر، يكون كما لو أن هناك تألقاً يضيء. كان دانييل يمشي بين الصخور على سجادة الأشنيات، فيما الشمس تبدأ بعكس أشعتها القوية على الماء والصخور. في تلك اللحظة، لم تكن هناك ريح، لم تكن هناك أية هَبَّة. في عمق البحر، السماء الزرقاء كانت واسعة جداً، تلمع بنور لا مثيل له. شعر دانييل بالحرارة على رأسه وكتفيه، أغلق عينيه كيلا يصيبه الألق الرهيب بالعمى. لم يكن هناك شيء آخر، أي شيء آخر: المساء، الشمس، والملح المتلألئ على الصخور.

في يوم انسحب فيه البحر بعيداً، وصار يبدو في الأفق كشريط أزرق رفيع، سار دانييل عبر الصخور التي كانت مغطاة بماء البحر. شعر فجأة بنشوة هؤلاء الذين يدخلون إلى أرض لم يطأها أحد من قبل، الذين يدركون بأنهم ربما لن يستطيعوا العودة. في هذا اليوم، لم يكن هناك شيء شبيه بهذا، كل شيء كان مجهولاً وجديداً. استدار دانييل فرأى اليابسة خلفه، كما لو أنها كانت بحيرة من طين. أحس أيضاً بالوحدة، بصمت الصخور العارية المحتوتة بماء البحر، بالقلق الذي كان يخرج من كل الشقوق، من كل الثقوب السرية، فمشى أسرع، ثم أخذ يركض. كان قلبه يخفق بقوة في صدره، كما في اليوم الأول لوصوله للبحر. كان يركض دون أن يستعيد نفسه، يقفز فوق البرك وأودية الأشنيات، متبعاً النتوءات الصخرية، رافعاً ذراعيه كي يحافظ على توازنه.

كانت هناك أحياناً مساحات واسعة دبقة، مغطاة بأشنيات مجهرية، أو صخور حادة كالشفرات، صخور غريبة تشبه جلد سمك القرش. في كل مكان، كانت برك الماء تلمع، وترتجف. الأصداف المرصعة بين الصخور تطقطق تحت الشمس، وكانت لفائف الأشنيات تصدر صخباً غريباً.

كان يركض دون أن يعرف إلى أين يذهب، في وسط أرض البحر، دون أن يتوقف لرؤية حدود الأمواج، كان البحر قد اختفى، انسحب إلى الأفق، كما لو أنه سال عبر ثقب يصل إلى قاع الأرض.

لم يكن دانييل خائفاً، إلا إنه لم يعد تماماً هو نفسه. لم يعد ينادي البحر، لم يعد يكلمه. كانت أشعة الشمس تنعكس على ماء البرك كما على المرايا، تتكسر على أسنة الصخور تقفز قفزات سريعة، تضاعف بريقها. كانت الأشعة في كل مكان، قريبة وبعيدة، قريبة بحيث أنه كان يشعر بمرور الأشعة على وجهه، بعيدة جداً كلمعان الكواكب الباردة. أخذ دانييل يركض على الصخور بخط معوج. جعلته الأشعة طليقاً ومجنوناً، يقفز كما تقفز، دون أن يرى. لم تكن الأشعة هادئة وساكنة، كأشعة الشواطئ والكثبان. كانت إعصاراً أخرق، يتدفق دون توقف، يرتد بين مرآتي السماء والصخور.

كان الملح – خاصة – يتراكم، منذ أيام، في كل مكان، على الحجارة السوداء، على الحصى، في قواقع الرخويات، حتى على الأوراق المصفرة للنباتات الكثيفة على سفح الجرف. اخترق جلد

دانييل، وتوضّع على شفتيه، على حاجبيه وأهدابه، على شعره وملابسه، مما جعل جلده يتقشر ويحرقه. حتى أن الملح دخل إلى داخل جسده، إلى حلقه، إلى بطنه، إلى مخ عظامه، ينخر ويصر كغبار الزجاج، يضيء البريق على شبكية عينيه المتألمة. كانت أشعة الشمس تهيج الملح، والآن كل شعاع يلمع على جسده وحوله. كان هناك هذا النوع من النشوة، هذه الكهرباء التي تتموج، لأن الملح والأشعة لا يريدان لأحد أن يبقى في مكانه، يريدان أن نرقص، أن نجري، أن نقفز من صخرة إلى أخرى، يريداننا أن نهرب إلى أعماق البحر.

لم ير دانييل بياضاً كهذا البياض. حتى أنه غطى ماء البرك والسماء. التهبت عيناه من هذا البياض. أغلق دانييل عينيه وتوقف، لأن ساقيه المرتجفتين لم تعد تقوى على حمله. جلس على صخرة ملساء، أمام بركة من ماء البحر. يستمع إلى صخب الضوء المنعكس على الصخور، كل أصوات القرقعة والفرقعة والنعيق، وبالقرب من أذنيه والدوي الحاد الشبيه بدوي النحل. كان يشعر بالعطش، لكن، كان عطشاً لايستطيع أي ماء أن يرويه. يتابع الضوء لفح وجهه، يديه، كتفيه، ينهشه بآلاف الوخزات والتنملات. تنسكب الدموع المالحة من عينيه المغلقتين، متبعة الشقوق الحارة على خديه. فتح جفنيه بمشقة، ونظر إلى الصخور البيضاء، حيث تلمع برك الماء. كانت الحيوانات البحرية والأصداف قد اختفت في الشقوق، تحت ستارة الأشنيات.

انحنى دانييل إلى الأمام على الصخور الملساء، واضعاً قميصه على رأسه، كيلا يرى الضوء والملح. ظل لوقت طويل ساكناً، الرأس بين ساقيه، فيما المتلألئ الخارق يعبر ويعبر في عمق البحر.

ثم جاءت الريح، ضعيفة في البداية، تهب بمشقة في الهواء الثقيل. اشتدت الريح وخرجت الريح الباردة من الأفق، ارتجفت برك ماء البحر مغيرة ألوانها. غطت السماء الغيوم، وأعاد الضوء التحامه. كان دانييل يسمع هدير البحر القريب، الأمواج القوية التي تلطم بطونها الصخور. بللت قطرات الماء ملابسه، فاستفاق من خدره.

البحر صار هنا. أتى سريعاً، يحيط بعجلة الصخور الأولى، فتبدو كالجزر، يغرق الصدوع، ينزلق بصخب نهر غاضب. في كل مرة يلتهم فيها قطعة من الصخور، تحدث ضجة مخنوقة تزعزع الهضبة، ويملأ الدوي الهواء.

نهض دانييل قافزاً. يركض نحو الشاطئ. الآن، لم يعد خائفاً، ولم يعد يخشى الضوء والملح. كان يشعر بنوع من الغضب في أعماقه، بقوة لا يفهمها، كما لو أنه استطاع أن يحطم الصخور وأن يحفر الصدوع، بضربة واحدة من كعبه. كان يركض أمام البحر، متّبعاً اتجاه الريح، وكان يسمع من خلفه هدير الأمواج. من وقت لآخر، كان يصرخ، هو أيضاً، مقلداً الأمواج.

«رام.... رام».....

بما أنه كان هو الذي يأمر البحر.

كان عليه أن يركض بسرعة . . . كان البحر يريد أن يأخذ كل شيء، الصخور، الأشنيات، وأيضاً ذلك الذي يركض أمامه. كان، أحياناً، يمد ذراعاً تارة نحو اليسار، وتارة نحو اليمين، ذراعاً طويلة رمادية مبقعة بالزبد الذي يقطع طريق دانييل، كان يقفز جانباً، يبحث عن ممر إلى قمة الصخور، أما الماء فكان يتراجع مرتشفاً نفسه من كل ثقوب الصدوع.

اجتاز دانييل، بالسباحة، عدة بحيرات عكرة. لم يعد يشعر بالتعب. بعكس ذلك، كان يشعر بداخله بنوع ما من الفرح، كما لو أن البحر والريح والشمس أذابوا الملح وأطلقوه.

كان البحر جميلاً . . . كانت الحزم البيضاء تنتشر في الضوء، عالياً، منتصبة، ثم تسقط بشكل غيوم بخار تنزلق في الريح. كان الماء الجديد يملأ شقوق الصخور، غاسلاً القشرة البيضاء، مقتلعاً حزم الأشنيات. في البعيد، بالقرب من الجرف، كان الشاطئ الأبيض يلمع. تذكر دانييل حكاية غرق سفينة السندباد، عندما حملته الأمواج إلى جزيرة المهراجا، ما يجري، الآن، يشابه ذلك. كان يركض بسرعة على الصخور، وقدماه تختار الممرات الأفضل، دون أن يجد الوقت ليفكر بذلك. لا شك أنه قد عاش هنا منذ الأزل، في عمق البحر، وسط السفن الغارقة والعواصف.

كان يركض بنفس سرعة البحر، دون أن يتوقف، دون أن يستعيد نفسه، مستمعاً إلى صخب الأمواج. كانت تأتي من الطرف الآخر من العالم، عالية، منحنية إلى الأمام، حاملة الزبد، تنزلق على الصخور الملساء، متحطمة على تصدعات الصخور.

كانت الشمس تلمع بأشعة ثابتة، بالقرب من الأفق. كانت تأتي كل هذه القوة منها، كان ضوءها يدفع الأمواج إلى الأرض. كان رقصاً لا يمكن أن ينتهي، رقص الملح حين يكون البحر هادئاً، رقص الأمواج والريح عندما يصعد المد نحو الشاطئ.

دخل دانييل المغارة، حين وصل البحر إلى جدار الفوقس. جلس على الحصى كي ينظر إلى البحر والسماء. إلا أن الأمواج تجاوزت الأشنيات، مما دعاه للتراجع إلى داخل المغارة.. إلا أن البحر كان دائماً يضرب، ملقياً سطحه الأبيض الغاضب على الحصى كما لو أنه ماء يغلي. تتابعت الأمواج بالصعود، واحدة وراء أخرى إلى أن وصلت إلى آخر حاجز من الأشنيات والعساليج(٥). وجد الماء الأشنيات الأكثر جفافاً، وأغصان الأشجار التي ابيضت بفعل الملح، كل ما تراكم على مدخل المغارة منذ أشهر. تعثر الماء بالبقايا، شتتها، أخذها في ارتداد الموج. أسند دانييل ظهره على الحائط الجوفي للمغارة. لم يعد يستطيع التراجع أكثر. لذا نظر إلى البحر كي يوقفه. بكل قوته نظر إليه، دون أن يتكلم. كان يرجع الأمواج إلى الخلف بموجات مضادة تكسر وثوب البحر.

قفزت الأمواج فوق جدار الأشنيات والبقايا عدة مرات، راشة عمق المغارة، ومحيطة بساقي دانييل. إلا أن البحر قد توقف فجأة عن الصعود. انخفض صوت الصخب المرعب، وأصبح أكثر نعومة، وأكثر بطئاً، كما لو أنها كانت مثقلة بالزبد. فهم دانييل بأن المد انتهى.

تمدد على الحصى، في مدخل الكهف، موجهاً رأسه نحو البحر. كان يرتعش من البرد والتعب، إلا أنه لم يكن قد عرف أبداً سعادة مثل السعادة التي هو فيها. وهكذا غفا، في سلام هادئ، فيما انخفض ضوء الشمس كشعلة تنطفئ.

ما الذي جرى له؟ ما الذي فعله، فيما بعد، كل هذه الأيام، كل هذه الشهور، في كهفه، أمام البحر؟ ربما، قد غادر حقاً إلى أمريكا، أو إلى الصين، على سفينة شحن، تسير ببطء، من ميناء إلى ميناء، من جزيرة إلى جزيرة. الأحلام التي بدأت يجب أن لا تتوقف. هنا، كان كل شيء مستحيلاً وسهلاً بالنسبة لنا نحن الذين نعيش بعيداً عن البحر، كل الذي كنا نعرفه، أن الذي قد جرى، كان أمراً فيه شيء من الغرابة.

كان أمراً غريباً، لأن فيه وجهاً غير منطقي، يكذب كل الذي يقوله الناس الجديون. فعلوا الكثير، بحثوا في كل الاتجاهات، كي يجدوا أثر دانييل، -الأساتذة، المراقبون، رجال الشرطة- طرحوا الكثير من الأسئلة، وفي أحد الأيام، اعتباراً من تاريخ محدد، تصرفوا كما لو أن دانييل لم يعد أبداً موجوداً. كفوا عن الكلام عنه. أرسلوا أغراضه، حتى أوراقه القديمة، إلى والديه، لم يبق شيء منه في المدرسة سوى ذكراه. حتى هذا، لم يعد الناس يريدونه. عادوا إلى الكلام، كما كان الأمر من قبل، عن أشياء وأشياء، عن نسائهم وعن منازلهم، عن سياراتهم وعن الانتخابات المحلية، كما لو أن شيئاً لم يجر.

ربما لم يكن ذلك تظاهراً بالنسيان، ربما كانوا فعلاً قد نسوه، من فرط ما انشغلوا به، خلال أشهر. ربما إذا عاد، وحضر إلى باب المدرسة، لن يعرفه أحد، وسيسأله الناس:

«من أنت؟ ماذا تريد؟»

أما نحن، فلم ننسه. لم ينسه أحد في العنبر، في الصفوف، في الباحة، حتى هؤلاء الذين لم يعرفونه. كنا نتكلم عن أمور المدرسة، عن المشاكل والدروس. إلا أننا كنا نفكر به دائماً، كما لو أنه حقاً كالسندباد وأنه يتابع تجواله في العالم. من وقت لآخر، نتوقف عن الكلام، فيسأل أحدنا، دائماً، نفس السؤال:

«هل تظن أنه هناك؟»

لا أحد يعرف بالضبط ماذا تعني «هناك»، إلا أن الأمر يبدو كما لو أننا نعرف ذلك المكان، البحر الواسع، السماء، الغيوم، أرصفة البحر البرية، الأمواج، الطيور الكبيرة البيضاء التي تحلق في الريح.

عندما يهز النسيم أغصان الكستناء، ننظر إلى السماء، ونقول، مع قليل من القلق، على طريقة البحارة،

«ستهب العاصفة»

وعندما تسطع شمس الشتاء، في السماء الزرقاء، نعلق:

«إنه محظوظ، اليوم».

إلا أننا لا نقول شيئاً أكثر من ذلك، كما لو أننا قد عقدنا ميثاقاً

مع دانييل، دون أن نعرف، تحالفاً خفياً، صامتاً، عقدناه ذات يوم معه، أو ربما، هذا الحلم الذي بدأناه، ببساطة، ذات صباح، حين فتحنا أعيننا على سرير دانييل في العنبر الظليل، والذي رسمه دانييل لبقية حياته، يجب أن لا يعود للنوم أبداً.



(١) الفوقس: نبات أخضر يقذفه البحر.

(٢) الصحنيات: نوع من المحار يؤكل ويكثر على الصخور التي تنكشف عند الجزر وتشبه صدفته الصحن.

(٣) أم الخلول: جنس من أجناس المحار.

(٤) أذن البحر: رخوية مفلطحة الصدفة.

(٥) العسلوج: غصن دقيق أملس ينتهي غالباً ببرعم ثمري.

الوقت لا يمر

أخذ هذا النص من مجموعة «الربيع وفصول أخرى»

في البداية، أود أن أحدثكم، عن الذي كانته زوبيد، يالها من فتاة جميلة، فريدة. إلا أني في اللحظة التي أحدثكم بها، لا أعرف من أين أبدأ. لم أعد أذكر، كيف كلمت زوبيد لأول مرة، ولا الذي قالته لي. أذكر فقط اليوم الذي رأيتها فيه، في الساحة الصغيرة، فوق شارع روستي. الآن، كل شيء تغير، لم يعد الشارع، حيث كنت أسكن، كما كان، جددت البنايات القديمة، وتم إجلاء سكانها من أجل أن تباع الشقق إلى ألمان وانكليز. توجد الآن محلات جديدة، تبيع أشياء غريبة، كالسجاد الفارسي، الدانتيل النورماندي، البخور، الشمع المعطر. كل شيء تغير، السلالم حيث كان الأطفال يلعبون مثيرين صرخاتهم الحادة، الساحات حيث كانت تجفف الملاءات. ربما لأن زوبيد لم تعد هنا. اختفت، ليست فقط من الحاضر، ولكن أيضاً من الماضي، كما لو أنها محيت، كما لو أنها رمت نفسها من فوق جرف أحدث ثقباً في السماء، من فوق بناء في الزرقة اللاهبة، لتختفي. هكذا مثلما تختفي الطيور -التي نادراً ما نجدها ميتة في الشوارع.

زوبيد كان الاسم الذي كنت أناديها به. كان اسمها الحقيقي زبيدة. اسمي دافيد، ولمداعبتي، كانت تسميني داود. وعلى هذا النحو، أطلقت عليها هذا الاسم: زوبيد. كان الأمر لعبة بيني وبينها.

لم أعرف جيداً من أين أتت. أخفت آثارها، منذ البداية. كانت غامضة في كل شيء. رأيتها، للمرة الأولى، في الساحة الصغيرة، حيث كان يجتمع الأولاد، بعد خروجهم من المدرسة، من أجل لعب الكرة، أو من أجل الشجار. عبرت دون أن تنظر إلى أحد، ثم اختفت في الشوارع المعتمة. لم أعد أذكر جيداً، كيف كانت تلبس، لأن التذكار الوحيد الذي احتفظه من ورائها، هو تلك الصورة، التي قدمتها لي، في أحد الأيام، حين بدأنا نلتقي. صورة مدرسية، حيث كانت تجلس في الصف الأول. في هذه الصورة، أجدها جميلة جداً، غريبة جداً. لمعان ما، كان يكمن فيها، في نظرتها الداكنة، في أعماق عينيها. بالرغم من ذلك، كانت ترتدي ملابس أطفال فقراء، كبيرة وقديمة. تنورة بيضاء بكشكش غريب تحت الركبتين، وتنورة داخلية لغجرية. وقميص فتى بأكمام مرفوعة كي تناسب قياسها، وجوارب طويلة غير جميلة من الصوف الأسود، وحذاء، لا يبدو كصندل فتاة صغيرة، وإنما كسكربينة كبيرة، رباطاها مفكوكان.

لا أعرف كم مرة نظرت إلى هذه الصورة، كي أفهم، كان يخيل لي أن هناك قصة سرية مكتوبة على هذه الوجوه، قصة سأستطيع قراءتها فيما بعد. ذات يوم، حملت لي الصورة، حين

أردنا الذهاب للتنزه في الحدائق العامة، عددت لي كل أسماء الأولاد والفتيات الذين كانوا معها في الصورة، لائحة، حفظتها عن ظهر قلب. «مارتين إيلاند، سيسيل سابيا، ماري انطوانيت ليو، رئيسة لعبي، آلان باجه، صوفي جيراردي، ماريس أوبرنه، ناديا كوهن، بيير بارنو، فضيلة...» أذكر العديد من هذه الأسماء، حين تعددهم، كنت استمع إلى صوتها بانتباه شديد، كأنه الشيء الأهم في هذا العالم.

حين كنت أنظر إلى الصورة، كنت أحدق بوجهها باهتمام، الوجه الذي كان لها في ذلك العمر. القوس الكامل لحاجبيها، كأنهما مرسومان بالفحم، عيناها الداكنتان، العميقتان، المتألقتان، ضفيرتها السوداء التي يتشبث الضوء بها. حين عرفتها، كان لها ضفيرة كثيفة وحيدة، تصل إلى خاصرتها. لم تظهر أبداً بشعر محلول، كنت أتخيل هذا الشعر الأسود كمطر ينهمر على كتفيها وظهرها. في الصورة، كانت تجلس في الصف الأول، تلم تنورتها بين ركبتيها كالغجريات، نظرتها متجهة، مباشرة، نحو آلة التصوير، دون خجل، ودون غنج. ربما كانت تنظر من أجل أن تدافع عن نفسها، من أجل أن تتقي المصائد. في تلك الأيام، حين عرفتها في الساحة الصغيرة، خلف منزلنا، لم تكن أبداً تضع نظارات سوداء.

هذه النظرة، هي التي لا أستطيع نسيانها. كانت تجلس في الصورة بشكل سوي، اليدان على ركبتيها، الكتفان عريضان، الوجه مشدود إلى الخلف، بثقل ضفيرتها. جبهتها ملساء، مخططة بأقواس

حاجبيها، وفي نظرتها، يلمع الألق الخاطف لحياتها. كانت تنظر من الصورة، يخيل إلي، بأن وجهها، كان الوجه الوحيد الذي ينظر إلى المجهول. كنت أحاول، في كثير من الأحيان، أن أتخيل مكانتها عند الآخرين، عند مارتين وصوفي، ماريس أوبرنه، ناديا كوهن، أو عند فتيان صفها، بيير بارنو، بوجهه الخجول الأشقر، أو ألن ذي التكشيرة الصغيرة. كيف استطاعت أن تعيش معهم دون أن يروها؟ في أحد الأيام، حين كنت عندها، في الأيام الأخيرة، كلمتني، للمرة الأولى والأخيرة، عن الثانوية الفرنسية، عن الأساتذة، عن المسافة التي تسيرها على الأقدام، في الفجر، كي تأتي من أطراف المدينة الفقيرة، وفي المساء، من أجل العودة. قالت بأنها بلا أصدقاء، بأنها لا تكلم أحداً، بأنها تعتقد بأنها غير مرئية. إلا أني حين انظر إلى وجهها في الصورة، لا أرى أحداً سواها.

في البداية، كنت كأني ألعب مع زوبيد الطميمة. ربما كان ذلك، بسبب الفقر الذي عاشت فيه، كل طفولتها، أو لأنها لم تكن تريد معرفة أي شيء عني، أو معرفة أحد. عدة مرات شاهدتها تعبر وتختفي في الشوارع الضيقة. ذات مساء، بعد المدرسة، تبعتها، كي أعرف عنوانها، سرها. لم تكن المرة الأولى، التي اتبع فيها شخصاً ما، في الشوارع. حتى أني أستطيع القول، بأني كنت قوياً، بما في الكفاية، في هذا الرياضة. كنت قد تبعت، على هذا النحو، عدة مشبوهين، وفتيات، لم يلاحظوا ذلك. لكن مع زوبيد، كان الأمر مغامرة حقيقية، مغامرة جرتني عبر كل المدينة.

أذكر تلك المطاردة التي كانت تبدو كما لو أنها لن تنتهي،

الساحات التي كانت تعبرها. ذهبنا أبعد من محطة القطار، في الأحياء التي لا أعرفها. كان هناك، أضواء تلمع، مقاه، فنادق، أناس متربصون، مومسات بعيون تعبة. كان أمامي، دائماً، خيال زوبيد، التي تسير مسرعة، في طريق لا يحيد، بتنورتها الزرقاء، بسترتها، وبجديلتها الطويلة السوداء، المتأرجحة على ظهرها.

إلى أن وصلت إلى ذاك البناء العادي، المواجه للخط الحديدي، باسمه الغريب المكتوب في أعلى البوابة، بأحرف مطبوعة على الجبس: الأيام السعيدة happy days. بعد أن دخلت، إلى مدخل البناء، وقرأت بسرعة الأسماء المكتوبة على العلب البريدية، التي لا أزال أذكرها، كأسماء سحرية مكتوبة على ورق مقوى، ملصق على العلب. بلقيس، سافي، سوفيغو، إسكانزي، أندريه، دلفان. في آخر الصف، كتابة بخط جميل، على ورق مدرسي ملصق على العلبة، هذا الاسم الذي صار بالنسبة لي، الاسم الأكثر أهمية في العالم، الأكثر جمالاً، الاسم الذي أعتقد أني كنت أسمعه دائماً: القنطرة. بعد ذلك، تجرأت أن أصعد عدة درجات، درجات غريبة من الأردواز، مهترئة في الوسط مما يجعلكم تفقدون التوازن، حين تصعدون عليها. أنصت إلى الصخب الذي كان يدوي في قفص السلم، أصوات، صرخات أطفال، تذمر الحيوانات من أجهزة التلفزيون.

في ذلك المكان، كانت تسكن زوبيد مع أمها، عرفت ذلك فيما بعد. تعيشان وحدهما، أمها لا تخرج أبداً، لأنها لم تكن تتكلم إلا العربية. تبعت زبيدة إلى البناية، عدة مرات، بعد ذلك، كنت

أعود، بقلب يخفق، وبوجه منفعل، كمن يرتكب خيانة - ربما كان ذلك حقاً خيانة. ذات مساء في بداية الصيف، بعد انتهاء الدراسة، جاءت زوبيد نحوي. أذكر ذلك جيداً، كان ذلك بجانب جدار حجري عال يحاذي سكة الحديد، لم يكن هناك مخرج للهرب. جاءت نحوي، لا أذكر جيداً ماذا قالت لي، لكن كنت أشعر بحرقة الشمس على أعلى الجدار الذي ارتفعت حرارته طوال النهار، وبعيون زوبيد التي تنظر إلي بغضب. قالت شيئاً مثل:

«لماذا تتبعني دائماً؟»

لم يكن لدي رغبة للإنكار.

«ربما تظن أني لم أرك خلفي كالكلب؟»

حدقت في للحظة، بعد ذلك هزت الكتفين وذهبت. أما أنا فبقيت ملتصقاً بالجدار، ظاناً بأني سأقع، كنت أشعر بفراغ ما في أعماق نفسي. مع ذلك، بعد هذا اللقاء، أصبحنا أصدقاء. لا أفهم لماذا تغير كل شيء. ربما في الواقع، الحديث عني ككلب جعلها تضحك. بكل بساطة، ذات يوم، جاءت إلى الساحة، ودعتني للتنزه. سرنا في الحدائق المهجورة. كان ذلك صباحاً، وكان الأسفلت يذوب تحت حرارة الشمس، جاءت مرتدية تنورة فاتحة، وقميصاً أبيضاً بأكمام مرفوعة، كالصورة. من ياقة القميص المفتوحة، رأيت سمرة بشرتها، الشكل المناسب لثدييها، عري ساقيها، صندل قدميها العاريتين. مشينا بأيد متشابكة. حين أطلعتني على الصورة. سعدت بذلك، لأنها كانت جديدة في ذلك الوقت.

خيل إلي، وأنا أغلق عيني، واستمع إلى صوتها، وأشم رائحتها، بأني كنت معها في تلك المدرسة، مع الآخرين. كما لو أني عرفتها منذ زمن طويل.

حقاً، كانا الوقت صيفاً، حتى الليل كان حاراً. حين استيقظ، أمضي مباشرة خارج المنزل، كان أبي وأمي يتهكمان علي، ربما شكا بشيء ما، إلا أنهما لم يعرفا أي شيء. كانا يتخيلان ملاطفة وحباً مع فتاة ما، فتاة من الحي، ابنة الجيران في الطابق الأسفل، ماري جو، الفتاة الشاحبة جداً، ذات الشعر الجميل الأشقر.

كنا نتقابل كل يوم. نغادر معاً، تقودنا مصادفة الشوارع، نحو البحر، أو نحو التلال، كي نهرب من ضجة السيارات. نبقى جالسين تحت الصنوبر - منذ العاشرة صباحاً، حيث يكون الجو جاراً، لدرجة أن قميصي يلتصق بظهري - ننظر إلى المدينة البيضاء، الغامضة. أذكر رائحة زوبيد، لم أشم أبداً رائحة مثلها، لاذعة، عنيفة، رائحة أزعجتني، في البداية، لكن فيما بعد، أحببتها، بحيث أنني لم أعد أستطيع نسيانها. رائحة تريد أن تقول شيئاً عفوياً أصيلاً، رغبة، شيئاً يجعل قلبي يضطرب. كان عمري ستة عشر عاماً، في ذلك الشهر، في حزيران، وبالرغم من أنها كانت تكبرني فقط بعامين، كنت أشعر بأني لا أعرف شيئاً، بأني لست سوى طفل. كانت هي التي تقرر كل شيء، متى تراني، أين نذهب، ما الذي سنفعله ونقوله. كانت تعرف أين ستذهب. حرارة الصيف، الشوارع، الصنوبر تحت الشمس، كلها أشياء ثقيلة تسكر، وتجعل الذاكرة تضيع. في أحد الأيام، قلت لها:

«لماذا تريدين أن تريني؟ ماذا تريدين؟»

«هكذا، لا لشيء. لأنه لدي الرغبة في ذلك.»

نظرت إلي بسخرية. لم أكن أعرف الشيء الذي أريده منها. بكل بساطة، أريد أن أنظر في وجهها، في عينيها الداكنتين، أن ألمس بشرتها، أن أمسك جسدها ذي الملابس البيضاء، أن أشم رائحتها.

كنا نذهب أحياناً للسباحة، في الصباح الباكر، أو في المساء، عندما يخلو الشاطئ من رواده. كانت زوبيد ترتدي تحت ثيابها، مايوه أسود صغير. تدخل إلى الماء بلمح البصر وتسبح لوقت طويل تحت الماء، ثم تخرج بشعرها الأسود المتطاير حولها. حين وصولها إلى الشاطئ، تجمعه في ضفيرة كي تجففه. بشرتها لامعة، معدنية، مقشعرة من البرد. تشعل سيجارة أمريكية، وننظر إلى البحر الذي كان يضرب الشاطئ، مبعداً فتات الصخور. كانت السماء مغطاة بالضباب، مع شمس حمراء. أذكر أني كلمتها عن البندقية. «لابد أن تكون البندقية بنفس المشهد.» خطر لي، بأنه ربما يكون نفس المشهد في بلدها، في سورية، في لبنان، أو ربما في مصر، هذا البلد الذي لم تتكلم عنه أبداً، كما لو أنها لم تلد في أي مكان.

بعد ظهر أحد الأيام، كنا ممددين على أبر الصنوبر، في التلال، تعانقنا للمرة الأولى. فعلت ذلك بسرعة وبرعونة، كما في السينما. أما هي، قبلتني بعنف، لسانها في فمي، يتحرك كحيوان. كنت مذعوراً، مرعوباً، كان في تلك القبلة شيء حميم، شيء لم أشعره مع أي كائن إنساني. فعلت ذلك ثلاث أو أربع مرات، بعد ذلك أدارت وجهها. ضحكت قليلاً، وقالت هازئة مني: «أنا

الشيطان. . . » لم أكن أفهمها. كنت منتشياً، خيل لي بأن طعم لعابها يملأ فمي. كان ضوء بعد الظهر براقاً. كنت أرى، من خلال جذوع الأشجار، المدينة البيضاء، والبخار الصاعد شيئاً فشيئاً من البحر، ولمعان آلاف السيارات في الشوارع. نهضت زوبيد راكضة بين الأشجار. تلهو بالاختباء خلف الأشجار والصخور. كان هناك عشاق آخرون في الفسحات المضاءة من الغابة، ومتلصلصون مترصدون. في أعلى التلة، كانت السيارات تمر بهدوء. كانت زوبيد تصعد أكثر إلى أعلى، تختبئ في التجاويف، ملتصقة بالجدران القديمة. أسمع ضحكاتها حين اقترب. كنت أشتهيها، إلا أني كنت خائفاً من رفضها. حين يسقط الليل، كنا ننزل إلى المدينة، على الدرج المنثور بحبيبات السرو. بينما طيور المساء، تطلق صرخات مقلقة. في الأسفل، نفترق بنزق، دون قول أي شيء، دون تحديد موعد جديد، كما لو أننا لن نلتقي مرة أخرى. تلك كانت لعبتها، لم تكن تريد أن يربطها أي شيء. أما أنا فكنت خائفاً من أن أفقدها.

في تلك الفترة، أعطتني صورتها. وضعتها في المغلف القديم الأصفر، وأعطتني إياها قائلة: «خذها، أريد أن تحفظها لي.» قلت بسذاجة وبنبرة مشبوبة بالعاطفة: «سأحفظها طوال حياتي.» لكن ذلك لم يضحكها. كانت عيناها تلمعان بغرابة وانفعال. أفهم الآن، حين أنظر إلى الصورة، بأنها قدمت لي نفسها. كما لو أنها لم تكن لديها حياة أخرى، ووجه آخر. هذا كل ما تبقى لي منها.

بقيت اللحظات الأخيرة، المحفورة في داخلي، وبالرغم من غموضها، ومن أني كنت أستبعدها، أظن أحياناً أنه قد سبق لي، أني

حلمت فيها، ليلة كنت مع زوبيد، على سقف تلك البناية المهجورة، ننظر إلى نجوم المدينة. كيف كان ذلك ممكناً؟ فيما بعد، لم أستطع أبداً إيجاد البناية، لم أفهم أبداً ما الذي حصل لي هذه الليلة، كيف حصل لي كل هذا. أعتقد أن زوبيد تنبأت بكل ذلك، دون أن تفكر حقيقة فيه، بطريقتها، أريد أن أقول بأنها كانت بالتأكيد تعرف بأننا لا يجب أن نلتقي. بالتأكيد، قررت أن تغادر قبل هذه الليلة، وأن تترك كل الذين تعرفهم، وأن أمها الصامتة يجب أن تذهب بعيداً للعمل، وبأنها لن تعود إلى الشقة الصغيرة في أعلى بناية الهابي ديز happy days. مع ذلك، يخيل لي بأن ذكريات تلك الليلة هي الأكثر إثارة، الأكثر قرباً من عالم صورة المدرسة، أظن أني كنت في تلك الليلة، أكثر قرباً منها من أي وقت آخر. على الشاطئ، شاهدنا الألعاب النارية التي تجري في ١٤ تموز (يوليو). كان الجو حاراً ورطباً، غيوم الصواريخ النارية كانت تتبعثر كالضباب فوق البحر. فجأة، كانت تلك المشاجرة على الشاطئ. كانت جموع من الرجال تتعارك في الظلمة، عرب من جهة، وعساكر من جهة أخرى. حملتنا تلك الجموع نحوها، وجعلتنا نسقط على الحجارة. تعبس الوجوه في لمعان الضوء، فيما اسمع صوت الإنفجارات تدوي في كل أنحاء المدينة. صرخات النساء والشتائم تملأ المكان، كنت أبحث عن زبيدة، حين تلقيت لطمة على الصدغ، جعلتني أترنح دون أن أسقط. سمعت صوت زوبيد التي كانت تناديني، صرخت منادية اسمي، مرة واحدة «داوود»، إلى الآن، لا أعرف كي أخذت يدي، وجرتني إلى البعيد، على الشاطئ. وقفنا بالقرب من الجدار الصاد للأمواج. كانت قدماي ترتجفان. شدتني زوبيد إليها، وبحثنا عن

الأدراج للهرب. اجتزنا الجموع قبل أن تعود الأضواء، وركضنا عبر الشوارع، بين السيارات، دون أن نعرف إلى أين نحن ذاهبان.

في آخر هذا السباق، وصلنا أمام تلك البناية، التي لم يكن بناؤها قد انتهى بعد، هيكل إسمنتي فارغ وصامت وسط أرض مهجورة. وعلى السلالم، صعدنا طابقاً، طابقاً، إلى أن وصلنا إلى الأعلى. كان سطح البناء كصحراء، مليء بالحصى، وبالمخلفات وقطع الحديد الصغيرة. كانت الريح تهب بقوة، ريح البحر، الريح التي تحت الجروف الصخرية. جلست زوبيد متكئة على مدفأة، أو خزان، لم أعد أذكر، وجعلتني أجلس إلى جانبها. كان ذلك باعثاً للدوار. كانت هناك ضجة الريح المتقلبة، ضجة الريح القادمة من عمق السماء السوداء، من فوق أسقفة المنازل، من فوق الشوارع والطرق الكبيرة.

ابتدأ الليل. بعد حرارة النهار الخانقة، والشهب المضيئة، وضجة الجموع، والمعركة المروعة على الشاطئ، في الظلام. الوجوه العابسة، لمعان الشهب النارية، الصفير، الصراخ. كان الليل يحمل معه السلام، خيل إلي بأني كنت في مكان آخر، في بلد أجنبي، حيث سأنسى كل ما يخص هذه المدينة، الشوارع، نظرات الناس، كل شيء يحبسني ويجلب السوء لي. كنت أشعر بالقشعريرة، لكن ذلك لم يكن البرد، إنه الخوف والرغبة. كان هناك ضوء المدينة، كان أشبه بفقاعة حمراء، تكشف الأرض أمامنا. كنت أنظر إلى وجه زوبيد، جبهتها، شفتيها، ظل عينيها. كنت أنتظر شيئاً ما، دون أن أعرف أي شيء أنتظر. أحطتها بذراعي، أردت أن أجذب وجهها،

إلا أنها ابتعدت عني. أظن أنها فقط قالت «لا، ليس كهذا، ليس هنا. . . .» قالت: «ماذا تريد؟» كنت أنا من طرح عليها السؤال من قبل. «لا شيء لا أريد شيئاً، إنه من الرائع أن نكون هنا، أن لا نريد شيئاً.» يخيل إلي أني قلت هذا، أو ربما حلمت به. ربما قلت أيضاً: «شيء رائع، لدينا كل الوقت الآن.» نقول أشياء كثيرة في الحياة، لكن فيما بعد، كل ما يقال يمحى، لا يعود أي شيء على الإطلاق. هذا ما كنت أريد سماعه، في موسيقا الريح، في هدير السيارات الذي يعلو من شوارع المدينة، مع فقاعة الضوء الحمراء التي تحيط بنا، كما لو كنا في وسط الشفق القطبي الشمالي.

حين يبقى فتى طوال الليل مع فتاة ما، أمن اللازم أن يهمس لها كما في السينما: «أحبك ياحبيبتي» أن يعانقها، أن يلامس ثدييها، أن ينام معها في التلال، مع صوت الريح، ورائحة الصنوبر، والناموس، أن يمرر يديه على بشرتها الناعمة، أن يسمع صوت تنفسها الذي أصبح أجش، كما لو كانت مريضة، أمن اللازم أن يحدث هذا؟ كنت أرتجف، حتى أني لم أكن أستطيع الكلام. قالت: «أتشعر بالبرد؟» شدتني إليها وهي تمرر يداها تحت ذراعي. «هل تريد أن نتعانق؟» لمست شفتاها شفتي، وحاولت مع لساني، أن أفعل كما فعلت هي في التلة. فجأة، دفعتني بقسوة، قائلة: «أفعل ما أريده.» نهضت ومشت نحو حافة سطح البناء، ذراعاها ممددتان، كما لو أنها كانت ستطير. كانت الريح تلوح بثيابها وشعرها، فيما كان الضوء الأحمر يرسم هالة غريبة حول جسدها. خطر في بالي، بأنها ربما كانت مجنونة، إلا أن هذا لم يعد يخفيني. كنت أحبها.

عادت زوبيد، وشدت جسدها على جسدي. قالت: «سأنام. أنا تعبة جداً، تعبة جداً.» لم أعد أرتجف. قالت أيضاً: «شدني بقوة أكثر.»

أما أنا فلم أنم. بقيت أراقب مرور الليل. ظلت فقاعة الضوء الأحمر تملأ السماء، مما جعل النجوم غير مرئية. كان هناك شيئاً آخر يدور، يتحرك. المدينة مليئة بالصدى كمنزل فارغ. كانت زوبيد تنام فعلاً. مخبئة رأسها في تجويف ذراعها، كنت أشعر بثقلها على فخذي. لم تستيقظ، حتى حين وضعت رأسها على معطفي الملفوف، وذهبت إلى الطرف الآخر من سطح البناء كي أتبول في الخلاء، تحت دخان المدافئ.

في الفجر، استيقظت زوبيد. كنت أشعر بالألم في كل جسمي، كما لو أن أحدهم قد ضربني. افترقنا دون أن نقول إلى اللقاء. حين عدت إلى المنزل، وجدت أن والدي لم يناما تلك الليلة. استمعت إلى تأنيبهما، ثم نمت بملابسي. بقيت مريضاً لثلاثة أيام. بعد ذلك، لم أر زوبيد. حتى أن اسمها اختفى عن علبة البريد.

الآن، كل صيف يقترب، أصبح وقتاً جافاً، ميتاً. الوقت لا يمر. أجول دائماً في الشوارع، اتبع ظل زوبيد، من أجل أن اكتشف سرها، حتى أصل إلى ذلك البناء ذي الاسم المضحك الحزين، hap-py days. كل هذه الذكريات صارت بعيدة، مع ذلك، فإنها ما زالت تجعل قلبي يخفق. لم أستطع أن أحتفظ بها، أو أن أخمن الذي كان يجري، أن أفهم الأخطار التي كانت تترصدها، أو تلاحقها.

كان لدي الوقت، لا شيء كان مهماً. لم أحتفظ منها بشيء سوى هذه الصورة المدرسية، حتى هذه الصورة، لم أكن فيها. ذكرى ذلك الوقت أو كل يوم كانت تعني نفس النهار، يوم وحيد من الوجود، والطول، والتلهف، حيث تعلمت كل ما ننتظره من الحياة، الحب، الانطلاق، رائحة البشرة، طعم الشفاه، النظرة الداكنة، الرغبة التي تجعلني أرتجف كما لو أني كنت خائفاً.



سحر

أخذ هذا النص من مجموعة «الربيع وفصول أخرى»

ظهرت من جديد، هذه الليلة. لماذا من جديد؟ هل رأيتها فعلاً من قبل، في مكان آخر، في وقت مضى؟ لماذا انتابني هذا الشعور، هذه الرعشة في القلب، منذ أن دخلت، هذه الليلة، في هذه الصالة الواسعة، برفقة تلك العجوز ذات النظرات الخبيثة -كلتاهما ترتديان ملابس سوداء كالغجر-، وبدأت تجتاز المطعم دون اهتمام للاضطراب الذي أثارته. وجهها كان جميلاً، أنوفا مضاء ومستسلماً للعبة الضوء والظل المنبثقين من السقف؟ لماذا شعرت بوجودها، حتى قبل رؤيتها، رؤية الاثنتين معاً، عندما دفعتا الباب الزجاجي، قادمتين من غموض ليل هذه المدينة المفزعة، كلاجئتين في هذه الصالة الواسعة المعبأة بالضجيج؟ نعم شعرت بذلك في داخلي، كنظرة غريبة، كحركة الهواء على جلدي، كخطر قادم، دخلتا هذه الصالة الضخمة والغريبة، معاً في الحركة البطيئة لثنايا ثوبيهما الأسودين. يالها من شابة، جميلة، ذات وجه متألق، ويالها من عجوز سوداء، متجعدة، خشنة وذابلة، مع هذه النظرة الثابتة، الجامدة، كظل مدار فارغ. لكن لماذا يخفق قلبي بسرعة أكبر، بقوة

أكبر، كأن هذه اللحظة كانت تمتلك أهمية كبرى، لا شيء مما كنت أعيشه، لا شيء مما عشته، كان مصادفة؟ نهضت قليلاً عن الكرسي، أظن، أنه كان ذلك من أجل المغادرة، أو من أجل أن أذهب أمامها، لم أعد أدري. كنت أراهما تتقدمان عبر الصالة الواسعة، تتبعان خطاً منحرفاً، كانت في الأمام، هادئة، تقف أمام كل طاولة، متبوعة بالعجوز التي كانت تنحني، والتي كانت نظرتها تركض أسرع منها، باحثة عن شيء ما، لا تستطيع التقاطه. عندما وصلتا إلى آخر الصالة، استطعت أن أفهم السبب الذي جذبهما إلى صالة هذا المطعم، هذه الصالة التي لم توجد من أجلهما. في كل وقفة، كانت العجوز تخرج من قفتها وردة تميل إلى الذبول، وتعرضها على زبائن المطعم، الذين كانوا يديرون وجوههم في ملل، ربما في نفور. جمال الغجرية الشابة الخارق الغير قابل للتصور، وجهها معتم، عيناها محتدمتان وغافلتان، فمها بهي، شعرها الأسود الطويل مفرود على كتفيها بانطلاق، يداها بمعصمين رقيقين جداً، جسدها اللين الرشيق في ثوب أسود طويل بال من الساتان، راقصة كظل، كانت هي التي تجبر الناس على التحول عنها، على الهرب في محادثة مصطنعة، لا مبالاة مستعارة، أو حتى على غضب موح. نعم، عدة مرات، رأيت نساء ورجالاً، في اللحظات التي كانت فيها العجوز المتسولة تتوسل إليهم، كانوا يطردونها بعنف، رافعين صوتاً يجعله الخوف والهياج حاداً وصارخاً. المهرجتان تتابعان التقدم في الصالة الكبيرة، التي أصبحت شيئاً فشيئاً صامتة وفارغة. أما أنا، فأجلس على طاولتي وسط الصالة، لم أعد أرى المدعوين، لم أعد أسمع هيجان أصواتهم. على العكس، كنت أشعر، بشكل غير محتمل، بكل

حركة صادرة عن المرأتين، كان يخيل إلي بأني كنت أسمع كل رنة من صوتيهما، أو بالأحرى، الصوت الرتيب والنائح للعجوز ذات النظرة الخبيثة، والصمت الأنوف للمرأة الشابة الجميلة، التي كانت تمشي أمامها، وتنتقل، هي أيضاً، من طاولة إلى طاولة لكن دون أن تستدير، ونظرتها ترقب البعيد في الفراغ، في ألق اللمعان القاسي، الذي يدعو إلى الفزع. أما أنا، فقلبي كان يخفق في صدري بقوة أكثر فأكثر، شعرت أن العرق يبلل راحتي. من أي شيء أنا خائف؟ بأي شيء تستطيع هاتان الغجريتان (فلم يعد لدي الشك بأنهما غجريتان بأثوابهما الطويلة، والشعر المحلول والعيون الشديدة السواد للمرأة الشابة والوجه الطويل الدقيق للمرأة العجوز المتسولة) أن تهدداني؟ وبالرغم من ذلك كان هذا: كنت أشعر بأن هذا المشهد لا يملك أي معنى إلا من أجلي، لأني كنت فيه. كأن المرأتين ذاتي اللباس الأسود لم يدخلا في صالة هذا المطعم من أجل أن يبيعا زهورهما، لكن من أجل أن يبحثا عني.

عندما فهمت ذلك، بدأ قلبي يخفق بسرعة وبقوة أكبر. الخوف، أو الآن، الغضب الذي حجب النور عن ذهني، أجبرني على البقاء، لمشاهدة ما سيحدث. لم أكن استطيع انتظار ما سيتبع بحثهما بهذه الطريقة، من طاولة إلى طاولة. لم أعد أستطيع تحمل ذلك كنت سأصرخ، ربما، بالطرق على طاولتي: «هنا.. انظرا إلي... أنا هنا.. هنا..» عندما أدارت المرأة الشابة الرأس نحوي، كأنها قد شعرت بنظرتي القاسية، الغامضة، كأنها أحست بصرختي البكماء. أدارت كل جسدها نحوي. كان لها، إذاً، جمال باهر.

تحت ضوء السقف الذي كان ينيرها كما تضاء خشبة المسرح، وجهها كان صافياً وباهراً، مثل تمثال، لكن في شيء من الحرارة ومن الحياة في نظرتها الداكنة، وعلى مشهد شفتيها، وفي لمعان وجنتيها. كانت تمسك معصم يدها اليسرى في يدها اليمنى، تشد عليه بحركة تدل على نفاذ صبرها وكان يخيل إلي، رغم المسافة، بأني أرى صدرها ينتفض على تناغم تنفسها، أيضاً، على تناغم تنفسي.

فجأة، غادرتني الخشية، لم أعد أشعر بالغضب أو بالخوف أو حتى نفاذ الصبر. بل كنت أشعر بالنشوة، لأن هذه المرأة المجهولة تحدق في، تغوص بنظرتها في نظرتي. لم أعش أبداً شيئاً كهذا في مكان آخر، لم أشعر أبداً بأني ضائع في لجة نظرة بهذا القدر. في داخلي، كان ذلك أكبر من داخلي، كان ذلك في كل الصالة، بل أبعد من ذلك، في هذه المدينة المجهولة في الليل، أشياء وخيالات كانت تعبر، تغادر، تتزحلق كي تملأ عالماً آخر، حياة أخرى. من أجل ذلك، ظللت مسمراً، لا أتحرك، كانت سعادة حمقاء عصية على الفهم تسيطر علي شيئاً فشيئاً. كم من الوقت استمر ذلك؟ لم أعد أعرف، لن أستطيع أبداً قوله. ساعات وأياماً، ظللت مسمراً في صالة الرقص هذه، حيث يتحرك الناس كأشباح، بينما العجوز المجنونة تنتقل من طاولة إلى طاولة، وهي تخضخض طاسة خشبية خشنة أو تنوح وتتمتم بلعنات أو بصلوات. ساعات، أياماً والنظرة الداكنة للشابة الغجرية تتوهج كشمعة عسلية، كنت أشعر بأني أبعد عني الرغبة بعيداً والحرارة والأشياء. كل ذلك الذي عشته خلال هذه السنوات الثمانية عشرة حيث لم أكن هنا، حيث كنت قد نسيت،

هذه السنوات الثمانية عشرة التي لا معنى أو حقيقة لها، حيث كنت موجوداً كأني في حلم، دون أن أمسك أو أن أبحث عن شيء، كل يوم بيومه، ثمانية عشر عاماً من التيه الذي لا طائل منه، من قصص الحب العابرة، من المطاعم، من حفلات الرقص الفارغة، من الرحلات المجهولة حيث تصبح الخرائط متاهات وتصير مشاريع المستقبل رياء وخداعاً.

ثمانية عشر عاماً كانت تفصلني عنها، عن نظرتها، عن الشعلة الداكنة التي تضيئ بؤبؤ عينيها، عن جماله الباهر ياله من جمال مطلق وخالد. الوقت كان يمر كأنه في حلم، لأن ذلك لم يكن إلا حياتي الحقيقية، في هذه المدن، مع هؤلاء الناس، مهنتي، أصدقائي، عشيقاتي، رحلاتي التي لا حقيقة لها، مجرد انعكاسات لا مبالية ومتوهجة في عيون الغجرية، انعكاسات أكثر قوة من أضواء الحفلات الراقصة. من أجل ذلك، كان قلبي يخفق مع هذا الهيجان، كأنه يريد أن يحطم سجن قفصه. الآن، جسر نظرات الغجرية يسكبني ويوحدني مع الآخر، وينسخ حدود الزمن، هذه الحدود التي لا تملك شرعية للوجود. كنت أنا نفسي، في النهاية، من جديد أنا بنفسي. لا شيء تغير في، كنت ذاك الطفل ذا الثلاثة عشر عاماً الذي كان يعود إلى منزله بعد المدرسة، سالكاً طريق البولفار، حاملاً كتبه ودفاتره المربوطة بمطاطة. على طول البولفار، (الطريق الذي كان يذهب إلى إيطاليا حيث كانت تعبر سيارات الشحن الثقيلة، الباصات، السيارات في السحاب الصادر عن الغاز المحروق) كنت أصعد إلى أعلى التلة، بالقرب من الممر الجبلي.

قليلاً، بعد المنعطف الكبير حيث يعلو صرير العجلات، كنت أرى ذلك البناء المكون من سبعة طوابق على طرف الطريق، كان يشبه سفينة كبيرة فارغة. لم أكن أحبه، وعلى الرغم من ذلك كان هو الذي يجذب ناظري. الطوابق العليا كانت تشبه معبراً للبواخر الفاخرة، كانت فارغة، عمياء. أحياناً كانت الستائر تهتز مع الريح معاكسة للنوافذ، كنت أرى وجهاً، وجهاً شاحباً لشبح. لكن كانت الطوابق السفلى، أو، من أجل أن أحدد بشكل أفضل، القبو كان يجذب نظراتي. هنا، تحت الأرض، كان يعيش أناس - كنت لا أفعل شيئاً إلا أن أنظر إليهم - كانوا يتجمهرون في زنزاناتهم القاتمة، حيث كانت أضواء المصابيح الكهربائية العارية تلمع حتى في الظهيرة. كان هناك موسيقا، روائح مطبخ، أصوات أطفال، ضحكات، بكاء، كلمات في لغة مجهولة، قاسية وعنيفة أو أحياناً هادئة، مماثلة للموسيقا.

هي هنا الآن، بالقرب مني، قريبة مني بحيث أنني أستطيع أن ألمسها. تنظر إلي بعيون عميقة، متألقة، بنظراتها التي لا أستطيع أن أهرب منها، لا أستطيع أن أفلت منها، نظرة يختبئ فيها السؤال. ثم أسمع صوتها، تكلمني. تقول كلمات، أسمع صوتها المنخفض، الأجش قليلاً، نبرتها الأجنبية - إسباني، روسي، برتغالي؟ تقول: تعال، اظهر، تذكر. أشياء كهذه، تلثغ بالراء، تفخم المقطع الأخير. تدور نحو أمها، هذه العجوز ذات النظرة الخبيثة والتي تتسول من طاولة إلى طاولة، تكلمها في لغة مجهولة، التي أفهم منها، في الحقيقة، كلمات إسبانية، alabad ,gracia أو malpais، لم أعد

أعرف. هل عني تتكلم؟ نظرت العجوز إلي، نظرة خاطفة، نظرة مليئة بالحقد، ثم استدارت لتتابع تقدمها بين طاولات المحتفلين غير المبالين.

كانت نظرتها التي عرفتها. هذه النظرة، هي التي أرجعتني إلى الخلف، طويلاً، إلى هذا المنزل الأبيض على طرف البولفار. أعود من المدرسة في الشتاء، صاعداً ببطء البولفار المحاذي للبحر، وعندما أعبر المنعطف، يظهر البناء الكبير القذر حيث كان مكتوباً، بأحرف دائرية من قبل الحرب، اسماً لا أستطيع نسيانه أبداً، كان شيئاً سحرياً، بالنسبة لي، متوعداً بضبابية، اسماً مكتوباً بهذا الشكل:

جيدكس JUDEX

ألمح البيت الأبيض حيث يعيش الغرباء في قبوهم المظلم. كل مرة أعبر بالقرب منه، قلبي يخفق بسرعة أكبر، بسبب هذه الأصوات، هذه الضجة، بسبب وجوه تلك النساء التي تلمح في النوافذ، أو بسبب طفل يبكي خفية، ليس كالأطفال الأغنياء، ولكن بهدوء ولوقت طويل. في ظهر أحد الأيام فيما كنت أصعد إلى المرتفع، ربما أسرع من المعتاد، دون أن أتوقع، كانتا هنا: على عتبات المنزل الأبيض في الممر الصغير الذي يؤدي إلى القبو، شريط ضيق مرشوش بالحصى الأبيض المقزز الذي كان الملاك يفرشونه في الحدائق الصغيرة للتلة، كانتا هنا: العجوز ذات الرداء الأسود، والنظرة الخبيثة، جالسة على كرسي من القش، وأمامها كانت الفتاة الصغيرة منتصبة، نحيفة، في لباسها الأسود، لاتتحرك تبدو كمن ينتظر أحداً أو شيئاً ما. وجهها كان كثير الشحوب، يغطيه شعرها

الكثيف الأسود، تملؤه عيناها الواسعتان، المتألقتان. عندما أتقدم، تدور نحوي ببطء وتحدق بي، وكاليوم، نظرتها تجتاحني وتحررني، تغيرني. لكن لم يكن من الواجب أن أتكلم عن اليوم، إذ أن اليوم غير موجود. إذا، نظرة ذلك الأمس البعيد المتأججة والحارة هي التي تملأ وجهها الشاحب، نظرة البؤس والسؤال أيضاً، والنداء، هذه الأشياء التي لم تتوقف، سنوات بعد سنوات. ظلت في داخلي، كضوء يتوهج ولا يتوقف عن التوهج. أعتقد أني توقفت لحظة من الأثر الذي تركته في، هذه النظرة. أبداً لم أتخيل أن نظرة كهذه ممكن أن توجد، هنا، في هذا المنزل، أريد القول في بؤس هذا القبو المظلم، في السجن الذي كان يعيش فيه العبيد، كما كان يقال. كانت الفتاة ذات الرداء الأسود، تقف في منتصف الممر، لا تتحرك، دون أي انتباه للناس الذين يتراكضون على الرصيف. فقط إلي كانت تحدق، كأني كنت ذلك الشخص الذي كانت تنتظره، اختارتني، أنا، فقط. كم من الوقت مر وأنا على طرف الرصيف، معلق بنظرتها الطفولية الداكنة الغامضة، والقلب يخفق، دون أن يعلم أي شيء آخر؟ لم أعد أعلم، واليوم أتساءل فيما إذا توقفت حقاً عن أن أكون هناك. أتذكر الآن، بعد مرور كل هذه السنوات - هذه السنوات التي لم تعد تملك أي معنى - أتذكر بأني جئت، أيضاً وأيضاً، في كل لحظة، أترصد اللحظة التي تخرج فيها الغجرية الشابة من الظل الرطب للقبو كي تبقى مع جدتها على الممشى الحصوي. شمس الشتاء كانت تسطع على ثيابها، على شعرها، تشعل لمعاناً أكثر دفئاً على بشرة وجهها. في أحد الأيام، كان الكرسي فارغاً، والفتاة الصغيرة تجلس في مكان جدتها، وعندما رأتني، نهضت، ركضت

نحوي، ثم توقفت، ربما كانت مفزوعة من تصرفها. «هل هي مريضة؟» سألتها ذلك، أظن أنها أجابتني قائلة «لا، ليس ذلك، كان عليها أن تذهب إلى السوق في المدينة»، هذه الكلمات التي لا تحمل أهمية كبيرة، كانت تقولها بصوت واضح وبطريقة تشعر بأنها الكلمات الأكثر أهمية في هذا العالم. في الحقيقة، كنت أشعر بشيء آخر، لا علاقة له بكلماتها، يختبئ في نظرتها، في الضوء، في جمال وجهها وجبهتها وشعرها وكتفيها وجسدها الضعيف في الثوب الأسود. «وأين أنت ذاهب؟» أذكر أيضاً الحياء الذي منعني من القول بأن هذا الطريق اتبعه، كل يوم، هو الطريق الذي كان يوصل بين بيت جدتي والمدرسة، طريق تافه، يسرق كل ضرورة للقائنا، عندما يجعله يبدو كحادث تافه على طريق التلاميذ. بدلاً من أن أقول لها بأني ذاهب إلى المدرسة، قلت لها: «ذاهب إلى هناك»، أو «يجب أن أمر من هنا». لم تطلب مني، بماذا أعني بكلمة «هناك». بالمقابل كنت مسروراً بالقول لها بأني أكثر قرباً منها، مثلما تسكن هي مع جدتها لكن هذه العجوز لا يمكن مقارنتها مع جدتي، فبينما كانت جدتي رقيقة وحنونة، كانت هي قاسية، مثيرة للفزع، في الأيام التي كانت تقضيها جالسة على الكرسي، كنت أكتفي بابتسامة من عينيي، وكانت الفتاة الصغيرة، ذات الرداء الأسود، تتبعني بنظرتها دون أن تجرؤ أيضاً على الحركة وعلى قول أي كلمة، فقط هذا التعبير عن القلق وهذا النداء في نظرتها الداكنة، التي تتبعتني وتجعل قلبي يخفق لوقت طويل بعد أن أعبر المنعطف التالي.

كنت أحب رؤية الفتاة الصغيرة ذات الرداء الأسود، كل مرة أعود فيها من المدرسة، أو أيام السبت والأحد عندما تكون لدي

الفرصة للتسكع في حارات الحي. بالرغم من ذلك، لم أتساءل عنها مرة واحدة، لم أسع مرة واحدة، لمعرفة ما الذي تفعله، عندما لا تكون واقفة في الممر الضيق للبناء. كان يجب أن أطرح عليها الأسئلة، أن أستفهم منها عن الأشياء التي تحبها، التي تريدها، ويجب أن أترصد الأجوبة في عينيها، أن أسمع خفقات قلبها، أن أصافح يديها الطفوليتين، أن أحاول أن أعطي شيئاً ما، أن أقتسم شيئاً ما. لكن، أظن من ناحيتي، أنها لم تكن موجودة في الأعماق. كانت شبحاً، تجلياً، دائماً في نفس المكان، على طرف البولفار الجهنمي المليء بهدير الشاحنات والسيارات، في البرد القارص وفي وحدة هذا الممر، في أسفل البناية الكبيرة، أمام تأوهات القبو التي منها كانت تهرب بعض لحظات، على طريقة السجناء الذين يخرجون إلى التنفس في الباحات الفارغة للأبنية المغلقة. أظن أنها كانت، بالنسبة لي، حلماً ساحراً وغامضاً، خيالاً ساحراً وهشاً، لكنه خيال يخلو من كل حياة واقعية، مع هذا الحزن وهذه الأسرار التي لا يستطيع الأحياء أن يدركوها. مهرجة، كالفتاة الصغيرة الأخرى التي كنت أراها في مواسم عيد الميلاد، في الساحة الكبيرة التي تعصف بها الريح، نحيفة ومزرقة في سروالها الطويل المزركش، تتلوى أمام أبيها، ابتسامة طريفة متشنجة على وجهها الفقير الذي أضاع طفولته. لكن أنا لم أكن أعرف رؤية هذا، لم أكن أستطيع أن أفهمه. ما كنت أحبه هو الحلم، هذا الخيال الأسود المحموم، هذه النظرة المربوطة بنظرتي مع تواقت يهزني ويمتعني في آن، هذه النظرة الحيوانية البرية التي كنت أكتشفها، والتي لا تشبه

شيئاً مما يستطيع العالم الحقيقي أن يطلعني عليه، هذه النظرة كانت حباً وموتاً ورغبة واعتقاداً ومعرفة وافتخاراً وازدراء، ربما. . . .

أذكر الآن، في عمق هذه الصالة الواسعة، الفارغة، المفزعة، تحت نظرة هذه المرأة الشابة المجهولة التي تمحو العالم، أذكر كل لحظة من هذه اللحظات التي كنت أظن أنها منسية. في ظهر أحد الأيام، قبل الصيف، في يوم عاصف ذي سماء زرقاء، بالتأكيد كان يوم أحد، حيث أني في هذا اليوم لا أكون محبوساً في سجن المدرسة، ذهبت إلى المنزل الأبيض الكبير، حتى الممشى الحصوي، لم يكن هناك كرسي القش، أظن أني شعرت بغصة في القلب، عندما ظننت أن العجوز المرعبة والجنية ذات الرداء الأسود لم تعودا موجودتين هنا، إنهما غادرتا. مشيت على الممر الحصوي، محاولاً أن أمنع وقع الحذاء. لأي سبب كنت خائفاً كل هذا الخوف؟ ربما لم يكن ذلك خوفاً، لكن وحدة، في هذا اليوم، مع هذه السماء الواسعة والفارغة، كهذا المكان، في هذه الصالة، والعبور المزعج للسيارات على البولفار، وهذه النوافذ ذات النظرة العمياء التي تربض فوقي، بينما كنت اقترب من باب القبو، فجأة، ظهرت أمامي. الضوء كان يسطع على شعرها وفي عينيها. وللمرة الأولى كانت تبتسم، وجهها كان يوحي بالانطلاق، وبنوع من الفرح البدائي. كان وحياً قوياً ومتوهجاً في عينيها، لدرجة أني لم أستطع أن أرفع عيني إلى عينيها. لم تكن طفلة. كانت امرأة، جاءت نحوي كامرأة، جميلة، حرة، شهية. مشت إلي، لمستني بيديها، بقينا ثابتين للحظة، في فراغ الريح، في وسط الممر الحصوي. لم يعاودني هذا الشعور في

مكان آخر، شعور بأني أضعت هيئتي، بأني أصبحت مجرد نظرة، رغبة. بعد ذلك، شيء ما انقطع. شعرت بالخوف، من جديد، لم تكن الوحدة، ولا الفراغ، لكن الخوف من أن أصبح غير مرئي، أن أصبح شخصاً آخر، أن يتغير قدري. وجب أن أتراجع، أما هي، الطفلة ذات الرداء الأسود، فقد كان لابد لها أن تشعر بالبرد الذي كان في، الذي يسيطر علي. قالت لي كلمات، حدثتني بصوت فيه قليل من البحة، بصوت طفلة منفعلة، جعلت قلبي يخفق ورمتني في العار. «ماذا هناك؟ ماذا تريد؟» نظرتها اكفهرت بشكل مفاجئ، تستجوبني بإلحاح، تبحث عن الحقيقة في أعماقي، الحقيقة التي لم أرد أن أقولها. فقط، كنت أفكر بالمغادرة، بلحاق أصدقاء الصف الذين كانوا ينتظرونني على أرصفة البحر من أجل لعبة كرة أو بصعود الأدراج حتى منزل جدتي، كي أختبئ في الكنبة من أجل قراءة القواميس في الوقت الذي أنصت فيه لصوت الزوابع وأرقب ضوء الشمس. «ليست موجودة اليوم، ولن تعود قبل المساء.» الصبية الغجرية كلمتني أيضاً، والانفعال يبرز لكنتها الغريبة، الرنانة، الرعناء. «لكن أنا لا أستطيع البقاء، يجب. . .» أردت أن أقول شيئاً ما، ولم أكن أستطيع أن أجد سبباً صالحاً. كل هذا لم يعد له أي معنى. حدقت بي بينما كنت أتراجع، الظل كان يوسع مداراته، كما الموت. غادرت بسرعة، في البداية مشيت، ومن ثم ركضت أكثر فأكثر، في سير مضطرب، لاهث، بينما وقع قدمي على أرض البولفار كانت ترن في رأسي. لا أعرف، أين ذهبت، ولم أعد أذكر، في أي الشوارع الخالية بين حدائق المنازل، همت على وجهي، في بعد ظهر ذلك اليوم. لم يبق، اليوم، شيء من كل هذا،

كله انمحى. فبعد مرور بعض الوقت، تم هدم البناء القديم الذي كان الغجر يستملكون قبوه. عندما سألت، بخجل، رئيس عمال الورشة، فقط رفع ذراعيه. «أين رحلوا؟ كيف تريد أن أعرف؟ رحلوا إلى مكان آخر، أي مكان. إنهم أناس لا يبقون وقتاً طويلاً في نفس المكان.» لم أر مرة أخرى الصبية ذات الرداء الأسود، ولا جدتها ذات النظرة الشريرة. طواهما مرور الزمن. ومحتهما من ذاكراتي التغيرات التي جرت في حياتي.

في هذه الليلة، ظهرتا من جديد، لمدة وجيزة. توقفت المرأة الشابة أمامي، نظرت إلي. ثم استدارت بسرعة، مع تعبير قاس من الإزدراء والغضب. الصالة الكبرى الفارغة ترن من جديد بهياج المبتهجين. الموسيقا كانت تخلق جواً من الفرحة الكاذبة، الرومبا كانت تزيد الدوار في جسدي. أما العجوز التي تحمل قفة الورد والمرأة الشابة ذات الرداء الأسود تسللتا، بسرعة، من بين الطاولات، واختفيتا. رأيت خيالهما، كحلم، أمام الباب، ثم غاصتا في الليل.





أورلاموند

أخذ هذا النص من مجموعة «الطواف وأفعال أخرى»

«آنا» جالسة في كوة النافذة الكبيرة. . . .

كانت تلك الكوة مكانها المفضل، بل المكان الذي تحبه أكثر من أي مكان آخر في العالم، منها تستطيع رؤية البحر والسماء على نحو أفضل، كانت لا ترى شيئاً آخر منها سوى البحر والسماء، كأن الأرض والناس اختفوا من الوجود. اختارت آنا ذلك المكان لعزلته: عال جداً، سري، لا أحد يستطيع الوصول إليه، كوكر معلق على جرف صخري لطائر بحري يطير فوق العالم. سرت آنا جداً حين وجدته. حدث ذلك منذ وقت طويل، سنتين، ربما أكثر، حين عادت أمها من أفريقيا، بعد موت والدها. كان بيير قد بقي في الأسفل، لإصابته بالدوار في ذلك الوقت، بدأت في الصعود مستعينة بالشقوق والصخور الناتئة، إلى أن وصلت إلى الأروقة. في كل مرة، كانت تصاب بشيء من الدوار، إلا أنه في الوقت نفسه، كان قلبها يخفق بقوة، مما يجعلها تشعر بنشوة تضاعف قواها وتدفعها إلى الأعلى.

حين تصل إلى أعلى الجدار، وتلمس أصابع يديها حافة

النافذة، كان قلبها يقفز من الفرح . . . فتنزلق داخل الفتحة، وتسند ظهرها على العمود الحجري، تتربع واضعة ساقاً على ساق، وتنظر إلى السماء والبحر. كما لو أنها لم ترهما من قبل: أفق صاف، منحن قليلاً، واسع داكن، أمواج تبدو كأنها ساكنة، محاطة بخط من الزبد. هنا غرفتها، بيتها، حيث لا أحد يمكنه المجيء. حين تأتي إلى هنا، كان بيير يبقى في أسفل الجرف الصخري، أمام البحر، حيث يمكث عند الصخور، بين النباتات الشائكة، من أجل أن يرصد المكان. كانت تسمع، في بعض الأحيان، صفيره الحاد، أو نداءه المحمول مع الريح:

«أووو هه»

كانت تجيب على ندائه، بنداء مماثل، واضعة يديها على مخرج الصوت، صائحة:

«أو هه هه»

إلا أن كل منهما لا يرى الآخر. حين تكون هنا، في بيتها، فإنها لا ترى شيئاً غير السماء والبحر.

الشمس تتقدم أمامها، ضوءها يضيء أعماق القبة، وعلى البحر، الطريق الكبير، الذي يشبه شلالاً من نار. روعة هذا المشهدجعلت آنا لا تفكر بأي شيء، كل الأشياء تمحى من ذاكرتها. لم تكن تنسى، وإنما الناس والأشياء والعالم الآخر لم تعد تمتلك نفس الأهمية. تصبح كنورس تطير فوق شوارع المدينة الهادرة، فوق البيوت الرمادية الكبيرة، فوق الحدائق الرطبة والمدارس والمشافي.

تفكر آنا، أحياناً، بأمها المريضة في المشفى الكبير، في أعلى المدينة. إلا أنها حين تكون هنا، في بيتها، في أعلى الجدار المهجور، مقابل البحر، تستطيع أن تفكر فيها دون ألم. تنظر إلى السماء الزرقاء، والبحر المتلألئ، وتشعر بحرارة الشمس وهي تخترق أعماقها، ثم تذهب حاملة كل هذا إلى أمها، في العنبر. تمسك يدها بقوة، فيدخل الضوء ولون البحر في جسدها أيضاً.

«أعملك في المدرسة على ما يرام؟»

كان ذلك هو السؤال الذي كانت تطرحه الأم دائماً. كانت آنا تومئ برأسها، لتقول «نعم»، وهي تشد على اليد النحيفة المضطربة، تنظر، والقلق يملأ وجهها، إلى أن تظهر الابتسامة الشاحبة التي تعرفها جيداً. لا أحد كان يقول لها، بأن آنا متغيبة عن المدرسة منذ ثلاثة شهور، من أجل الذهاب لرؤية البحر والسماء. ونتيجة لترددها المستمر، أصبح وجه الفتاة الصغيرة، شبيهاً بلون الخبز المحروق، أما عيناها، فكانتا تشعان بوميض غريب.

وحده ي[illegible]ر، كان يعرف أين تختبئ، إلا أنه لن يخبر أحداً، حتى ولو ضرب. لقد أقسم بذلك، برفع يده اليمنى، وممسكاً آنا بيده اليسرى. في كل يوم، بعد المدرسة، يركض بمحاذاة الشاطئ، إلى أن يصل إلى الصخور المهدمة. يختبئ بين الأشواك، إذا كان هناك شخص ما، ينتظر اللحظة المناسبة، دون أن يتحرك. ثم يطلق صفيره بين إبهامه وسبابته، فيعم صدى صفيره الحاد في أعماق المسرح القديم المدمر. يتابع الانتظار، وقلبه يخفق، مترقباً صفير آنا، الذي يأتي

خافتاً بسبب الريح التي تهب في أعلى الجرف، كان بيير هو الذي علم آنا إصدار الصفير بوضع إصبعين بين الشفتين.

بدأ كل هذا منذ زمن طويل. . . .

هل يمكن أن ينتهي كل شيء اليوم. . . ؟

آنا جالسة في كوة النافذة العالية، ورغم حرقة الشمس، كانت ترتجف، وأسنانها تصطك بعصبية. تعلم بأنها وحيدة هنا، لا أحد معها، كما لو أنها تنتظر الموت. من قبل، كانت تعتقد أن انتظار الموت ليس صعباً. يكفي أن يكون المرء غير مبال، قاسياً كالحجر، فلا يبقى، بذلك، مكان للخوف. إلا أنها اليوم، وحيدة في مخبئها، وجسدها يرتجف كله. نعم، على الأقل كان بيير هنا. لكن، ربما لم يعد يمتلك الشجاعة. تحاول أن تصدر صفيراً، لكنها ترتجف بقوة، دون أن تستطيع فعل ذلك. فتصرخ: «أو هه هه». إلا أن نداءها يضيع في الريح.

تنصت بكل قوتها، من أجل أن تعرف اللحظة التي يصل فيها الهدم، لا تعلم أين هم الآن، لكنها تعلم بأنها سيجيئون من أجل إسقاط جدران أورلاموند. آنا تنصت بكل قوتها، تنصت إلى الضجة الغريبة، التي تصدرها الريح حين تلاعب الهياكل المعدنية، داخل الصالة الكبرى الفارغة، تحت أقواس الحجارة. تذكر المرة الأولى التي مشت فيها في المسرح المهجور. تقدمت في الممر الإسمنتي. كان الظلام يخنقها، بعد أن تركت ضوء الشمس والبحر. تابعت سيرها، ودخلت المنزل الشبح، تسلقت السلم المرمري، ووقفت على خشبة المسرح المضاءة ببصيص خافت، تنظر

إلى الديكور التالف، العواميد الحلزونية التي كانت تسند اللوحات الزجاجية المحطمة، الحوض الرخامي ونافورته الناضبة، كانت ترتعد، كما لو أنها كانت الأولى التي تخترق سر هذه العزلة. شعرت لأول مرة بشعور غريب، كما لو أن هناك شخصاً يختبئ ويراقبها. في البداية كانت خائفة، لكنها لم تكن نظرة عدوانية، بالعكس، كانت ناعمة، بعيدة كما في حلم، نظرة تجيء من كل الجهات في الوقت نفسه، تحيط، وتمتزج بها. لذلك، عادت إلى الخلف، تقودها موسيقا أنين الريح، التي تلاطم الهياكل المعدنية في عمق المسرح المهجور. صرير الموسيقا البطيئة، كان يعطيها الشعور بالتحليق في الخارج، في افتنان السماء.

يأتون، سيأتون. أحاطوا أورلاموند بالأوتاد والأسلاك الشائكة، ونصبوا لوحات، كتب عليها كلمات فظيعة، تشبه الأوامر:

ورشة

ممنوع الإقتراب

خطر الموت

ألغام

أحضروا الآلات الصفراء، الرافعات ذات الصواري الضخمة، الحفارات، الجرافات، وأيضاً الآلة التي تحمل في طرف ذراعها كرة ضخمة سوداء من المعدن. قال بيير، بأنهم يستعملونها من أجل تحطيم الجدران، لقد رأى واحدة مثلها في المدينة، ترمي ثقلها على المنازل، التي تتحطم، كأنها غبار.

وصلت هذه الآلات منذ أيام، في الوقت الذي كانت فيه آنا تنتظر في بيتها، في أعلى الجدار. كانت تعلم، بأنها إذا غادرت، سيشغل العمال آلاتهم، ويسقطون كل الجدران.

إنها تسمع أصواتهم. يدخلون أورلاموند من الطريق الكبير، يجتازون الحدائق، حيث ينمو العليق، وتعيش القطط الشاردة. تسمع آنا ضجة أحذيتهم التي ترن على السقوف الإسمنتية في ممرات المسرح المهجور. تفكر في القطط الفارّة، وفي السحالي التي تختبئ في الشقوق، بأعناقهم المختلجة. قلبها يخفق بسرعة وبقوة أكثر، تفكر أيضاً في الهرب، والاختباء في أسفل الجرف الصخري، في الركام. إلا أنها لا تجرؤ على الحركة، لخوفها من أن يراها العمال. تنزوي، بأكثر ما تستطيع، في عمق المضجع، تلف ساقيها بأسفل جسدها، واضعة يديها في جيوب سترتها.

حين يحمل الوقت معه الخراب، فإنه يمر ببطء. حين ترمش عيناها، كانت آنا ترى السماء التي تحبها، مغطاة بالطيور، بالذباب، ببيوت العنكبوت. والبحر البعيد يشبه لوحاً حديدياً، قاسياً، راكداً، لامعاً. تهب الريح بقوة، فتبعث البرد في جسد الفتاة الصغيرة، وتمزج عيونها في الدموع. تنتظر وترتجف. وكانت تريد أن ينفجر شيء ما، أن تبدأ الآلات الكبيرة الصفراء بالعمل، أن تطلق أنيابها، أذرعها، أن تلقي كراتها المجلجلة على الجدران القديمة. إلا أنه لا شيء يحدث، سوى صوت موتور، ضعيف جداً، وصوت مطارق عمال الهدم، في مكان ما على الشرفات. حين وصلت الشمس إلى منتصف السماء، نادت آنا صديقها من جديد. مصدرة صفيراً من بين أصابعها، وصرخت «أو هه هه. . .»

لا أحد يجيب. ربما علموا، بأنه سيأتي ليلحق بها، فحبسوه في الصف، في داخل الجدران العليا للمدرسة. ربما استجوبوه، كي يقول ما يعرفه. لكنه أقسم لها برفع يده اليمنى، وهو يمسكها بيده اليسرى، وهي تعلم بأنه لن يقول شيئاً.

الصمت يعود إلى الورشة. ربما يتناول العمال، الآن، طعام الغداء، أو أنهم تركوا الورشة إلى الأبد... آنا تعبة جداً، من الانتظار، ومن البرد والجوع أيضاً، تنزلق قليلاً، وتسند رأسها على كتفها الأيمن. أما الشمس، فكانت تلمع على البحر، تفتح طريق النار، ذلك الطريق الذي تنزلق عليه، ونغادر.

تحلم، ربما في نهاية الطريق المتلألئ، ستجد أمها في انتظارها منتصبة، مرتدية ثوبها الصيفي الأزرق الباهت، والضوء يلمع على شعرها الأسود، وكتفيها العاريين. تجلت بخفة، كأيام زمان، عندما كانت تعود من الشاطئ، والماء يلمع ويسيل على جلد ذراعيها. جميلة وسعيدة، كما لو أنها لن تموت أبداً. كي تراها، كانت آنا تجيء هنا، إلى مخبئها في أعلى الجدار. أيضاً، هناك تلك النظرة التي تحيط بها، إنها نظرة رجل عجوز، لا تعرفه، لكنه يعيش هنا في هذه الاطلال. هو الذي قادها، للمرة الأولى، إلى النافذة المقوسة، حيث يُرى امتداد البحر. كانت آنا تحب أن تشعر بنظرته إليها، إلى كل مكان حولها، إلى الجدران القديمة، إلى اطلال الشرفات، وإلى الحدائق المعلقة المكتسحة بنباتات النجيل والأقنثة.

لماذا يريدون تدميره؟ عندما قالت آنا لبيير، بأنها ستبقى في الأعلى، في بيتها، حتى ولو كانت ستموت، لم يجبها. لذلك،

جعلته يقسم بأنه لن يكشف مخبأها لأحد، حتى ولو ضرب، حتى ولو أحرق أخمص قدمه بشمعة.

هذا المكان لها، لا لأحد آخر. منذ زمن طويل، تعرف كل حجر، كل خصلة زعتر، كل دغل شوك. في البداية، كانت خائفة من أورلاموند، لأنه مكان مهجور مقفر، ولأن المسرح القديم المهجور، يشبه قصراً مسكوناً بالأرواح. لم يدخله بيير أبداً، كان يفضل أن يبقى في الأسفل، مختبئاً في الركام، من أجل أن يترصد. كان هو الذي أعلمها بأنهم سيهدمون المسرح. كان قد قالها مرة واحدة، بسرعة، ثم عادها، عدة مرات، لأن الفتاة الصغيرة لم تفهم، شعرت ببرد شديد، وبدوار في الرأس، كما لو أنها ستصاب بالإغماء. مباشرة، ركضت إلى أورلاموند، رأت الأوتاد والأسلاك والكتابات وأيضاً الآلات الكبيرة الصفراء المتوقفة على طرف الطريق الكبير، من الأعلى، بدا كل شيء، يشبه حشرات قبيحة.

فجأة، بدأت تسمع أصوات الإنفجارات. ضربات مرعبة يرن صداها في الجدار الحجري، وتجعل الغبار منهمراً على شعرها. في طرف الذراع التي تكنس، كتلة تطير بتثاقل، وتسقط على الجدران القديمة للمسرح. كانت آنا تنتظر ذلك، إلا أنها لم تستطع، نتيجة خوفها، منع نفسها من البكاء. بكل قوتها، تمسكت بحافة النافذة، التصقت بالجدار. لكن الضربات جاءت، طويلة، متباعدة، عنيفة جداً، هزت وعفرت جسد الفتاة الصغيرة. كانت جلجلة سقوط الجدران الأولى مرعبة. رائحة الغبار ملأت المكان، ، غطت غيوم قاتمة السماء والبحر، مما حجب الشمس. أرادت آنا أن تصرخ، من

أجل أن يتوقف كل هذا، لكن الخوف منعها من ذلك، والاهتزازات دفعتها نحو الخواء. ضجة سقوط الجدران تقترب. في طرف الذراع الجبارة، الكرة السوداء تتأرجح، تسقط، تنهض، تسقط ثانية. سيدمرون كل شيء، ربما كل الأرض، والصخور، والجبال، ومن ثم سيطمرون البحر ،السماء تحت الأنقاض والغبار، استلقت آنا على حافة النافذة، تبكي بانتظار الضربة التي ستسحقها، والتي ستدمر البيت الذي تحبه.

كانت الضربات تقترب، أكثر مما نظن. والكتلة تضرب في أعماقها، على نحو أعمى، تسقط الجدران، تهد الألواح الخشبية، تهز الهياكل المعدنية، تتقدم ببطء نحو الجدار الحجري المنتصب أمام البحر والسماء.

بعد ذلك، كل شيء توقف، دون أن تفهم شيئاً. عاد الصمت، عميقاً، ثقيلاً. كان الغبار يسقط، كما يحدث بعد انفجار. كان هناك من يصرخ، من ينادي. نزل العمال إلى أسفل الجدار، ونظروا نحو النافذة. أدركت آنا أن بيير قد خانها، قاد الرجال إلى مخبئها. وهم، الآن، ينادونها، وينتظرونها. إلا أنها لم تبد أي حركة.

صعد أحد الرجال إليها، بواسطة سلم. حين وصل، نظر إليها، وهو يستند إلى حافة النافذة، قائلاً برقة: «ماذا تفعلين هنا؟»، مد يده نحوها. «هيا، تعالي، لا تستطيعين البقاء هنا.» هزت آنا رأسها. كانت عاجزة عن التكلم، بسبب حنجرتها المشدودة. ضجة الهدم ظلت في داخل جسدها، كما لو أنها لن تتكلم أبداً. انحنى

الرجل وأخذها بين ذراعيه. كان قوياً، بدلة عمله الزرقاء مغطاة بالغبار، والواقية التي يرتديها، تلمع تحت الشمس.

شعرت آنا بتعب شديد، كانت عيناها تغمضان رغماً عنها، كما لو أنها ستنام. حين وصلا إلى أسفل السلم، وضعها الرجل على الأرض. فيما كان العمال ثابتين في أمكنتهم، دون أن يقولوا كلمة، واقياتهم تلمع بقوة. كان بيير منتصباً بجانبها، وعندما نظرت إليه، ابتسم بغرابة، كما لو كان يقطب وجهه، وبالرغم من حزنها، كانت آنا ترغب في الضحك. رفعت كتفيها، وقالت في داخلها: يجب أن أجد شيئاً آخر.

بالرغم من حرارة الشمس، كانت آنا ترتجف من البرد. أراد الرجل ذو الواقية الصفراء وضع سترة عمل على كتفيها، إلا أنها رفضت. كان بين الموجودين، رجل يرتدي بدلة كستنائية، عرفت آنا فيه أحد المراقبين في المدرسة. مشوا معاً إلى أعلى الجرف، حيث كانت سيارة البوليس الزرقاء تنتظر في الطريق الكبير.

كانت آنا تعرف بأنها لن تتكلم، لن تقول شيئاً. حين كانت تصعد إلى سيارة البوليس، استدارت قليلاً، ونظرت إلى الجدار الحجري، لآخر مرة، وإلى البحر المتلألئ. أورلاموند لم يعد موجوداً، لم يعد إلا خراباً بلون الغبار. نظرة الرجل العجوز كانت تبتعد مثل دخان نار مخنوقة. لكن انعكاس الشمس على البحر يلمع على وجه وعيون الفتاة الصغيرة مع ضوء لا يطفؤه الغضب.



ليلابي

١

أخذ هذا النص من مجموعة «موندو وقصص أخرى»

في اليوم الذي قررت ليلابي عدم الذهاب إلى المدرسة -من أواسط تشرين الأول- نهضت من فراشها، اجتازت، بأقدامها العارية، غرفتها وباعدت بين شفرات الستارة لترى الخارج. كان الوقت لا يزال باكراً، والجو مشمساً، وبانحناءة صغيرة، استطاعت رؤية جزء من السماء الزرقاء. في الأسفل، على الرصيف، ثلاث أو أربع حمامات تتقافز، تشعث ريشها من الريح. من فوق أسقف السيارات المتوقفة، كان البحر أزرق داكناً، وكان هناك شراع أبيض يتقدم بمشقة. تنظر ليلابي إلى كل هذا، فتشعر بالراحة لقرارها عدم الذهاب إلى المدرسة.

عادت إلى وسط الغرفة، وجلست أمام طاولتها، ودون إضاءة المصباح بدأت تكتب رسالة:

بابا العزيز:

صباح الخير.

الجو لطيف والسماء كما أحبها صافية جداً جداً... أحب أن تكون هنا

لرؤية السماء. البحر أيضاً صاف جداً جداً. قريباً سيجيء الشتاء، هاهي سنة طويلة أخرى تبدأ. أتمنى لو تستطيع المجيء قريباً لأني لا أعلم فيما إذا البحر والسماء يستطيعان انتظارك طويلاً، هذا الصباح عندما استيقظت (حدث هذا منذ أكثر من ساعة) ظننت من جديد أني كنت في استامبول. أحب أن أغلق عيني وحينما أفتحها أجد نفسي في استامبول أتذكر؟ كنت قد اشتريت باقتين من الزهور، واحدة كانت لي والأخرى كانت للأخت لورانس. أزهار كبيرة بيضاء، رائحتها قوية (ألهذا اسميناها الأريج؟) كانت رائحتها قوية حتى أننا اضطررنا لوضعها في صالة الحمام. قلت أننا نستطيع شرب الماء في الداخل، وأنا ذهبت إلى صالة الحمام وشربت لوقت طويل، وأزهاري كلها تلفت. أتذكر؟

توقفت ليلابي عن الكتابة. عضعضت للحظة طرف قلمها «البيغ» الأزرق، وهي تنظر إلى ورقة الرسالة. إلا أنها لم تكن تقرأ. كانت فقط تنظر إلى بياض الورق، متخيلة أن شيئاً ما ربما سيظهر، كالطيور في السماء، أو كقارب صغير يعبر ببطء.

نظرت إلى المنبه على الطاولة: الثامنة وعشر دقائق. كان منبه سفر صغيراً، مغطى بجلد عظاية سوداء، لا حاجة لربطه إلا كل ثمانية أيام.

كتبت ليلابي على الورقة.

بابا العزيز:

أريدك أن تحضر لتأخذ المنبه. أنت أعطيتني إياه قبل أن أغادر طهران، ماما والأخت لورانس قالا بأنه جميل جداً، أنا أيضاً أجده كذلك، إلا أني،

الآن، أظنني لم أعد بحاجة إليه، لأجل ذلك أريدك أن تأتي لتأخذه، سيفيدك من جديد، إنه يعمل جيداً، لا يصدر أي صوت في الليل.

وضعت الرسالة في مغلف بريد جوي. قبل أن تغلقه، بحثت عن شيء ما لتضعه في داخله. إلا أنها لم تجد شيئاً على الطاولة سوى أوراق، كتب، فتات من البسكويت. كتبت العنوان على الغلاف:

السيد بول فرلاند

٨٤ شارع فردوسي

طهران ايران

وضعت المغلف على طرف الطاولة، وذهبت بسرعة إلى الحمام كي تنظف أسنانها ووجهها. كانت ترغب بالاغتسال بالماء البارد، إلا أنها خافت من أن يوقظ الضجيج أمها. عادت بأقدام حافية إلى غرفتها. لبست على عجل، كنزة صوفية خضراء، وبنطالاً مخملياً بنياً، وسترة كستنائية. ومن ثم ارتدت جواربها وحذاءها الطويل ذا النعل المطاطي. مشطت شعرها الأشقر دون أن تنظر إلى المرآة، ووضعت في حقيبتها كل ما وجدته حولها، على الطاولة والكرسي: أحمر الشفاه، مناديل ورقية، قلم حبر ناشف، مفاتيح، أنبوبة أسبرين. لم تكن تدري تماماً ما هي بحاجة إليه، تلقي نظرة على الفوضى التي تراها في غرفتها: إيشارب أحمر ملفوف بشكل مكور، إطار قديم من فرو، مدية، كلب صغير من البورسلين. في الخزانة، تفتح علبة وتأخذ مجموعة من الرسائل. في علبة أخرى، وجدت رسماً كبيراً ثنته ووضعته في حقيبتها مع الرسائل. في جيب معطفها المطري، بعض النقود الورقية وحفنة من القطع النقدية

أسقطتها أيضاً في حقيبتها. في لحظة الخروج، عادت إلى الطاولة وأخذت الرسالة التي كتبتها. وفتحت الدرج اليساري وبحثت بين الأشياء والأوراق إلى أن وجدت هارمونيكا صغيرة كتب عليها:

ECHO Super

Vamper

MADE IN GERMANY

وحفر بحد السكين:

David

نظرت إلى الهارمونيكا لثانية، ثم أسقطتها في الكيس، وضعت حمالة الحقيبة على كتفها الأيمن وخرجت.

في الخارج، كانت الشمس حارة، والسماء والبحر لامعين. بحثت ليلابي بعينيها عن الحمام، إلا أنه كان قد اختفى. في البعيد، قريباً من الأفق، كان الشراع الأبيض يتحرك ببطء، متمايلاً على البحر.

شعرت ليلابي بقلبها يخفق بشدة. كانت مضطربة والصخب يملأ صدرها. لماذا كانت في هذه الحالة؟ ربما كان كل ضوء السماء يسكرها. وقفت ليلابي على الدرابزين، ضامة ذراعيها بقوة على صدرها. وتمتمت بشيء من الغضب: «إن هذا يضايقني».

ثم سارت في طريقها، محاولة أن لا تنتبه لاضطرابها.

كان الناس يتجهون إلى أعمالهم. يقودون سياراتهم بسرعة،

على طول الشارع، باتجاه مركز المدينة. وكانت الدراجات النارية تتسابق بضجيج محركاتها. كانت العجلة بادية على راكبي السيارات الجديدة ذات النوافذ المغلقة. عندما يعبرون، يلتفتون قليلاً ليروا ليلابي. بل كان هناك رجال يضغطون على زمامير سياراتهم، دون أن تعيرهم ليلابي أي انتباه.

هي أيضاً، كانت تمشي بعجلة على طول الشارع، دون أن تصدر صوتاً بكعبيها المطاطيين. كانت تسير بالاتجاه المعاكس، نحو التلال والصخور. كانت تنظر إلى البحر، مطبقة عينيها لأنها نسيت أن تأخذ نظارتها السوداء. كان يبدو أن المركب الشراعي الأبيض يتبع نفس اتجاهها، بشراعه الكبير المتساوي الساقين والذي نفخته الريح. أثناء مسيرها، كانت ليلابي تنظر إلى زرقة البحر والسماء، والشراع الأبيض، وصخور الرأس البحري، كانت مسرورة جداً لقرارها بعدم الذهاب إلى المدرسة. كل شيء كان جميلاً جداً، كأنما المدرسة لم تكن موجودة أبداً.

كانت الريح تعبث بشعرها وتشبكه، ريح باردة تلسع عينيها وتصيب جلد وجنتيها ويديها بالاحمرار. كانت تفكر بأنه من الروعة أن تسير بهذا الشكل، تحت الشمس وفي الريح، دون أن تعرف إلى أين تمضي.

عندما خرجت من المدينة، وصلت أمام طريق المهربين. كان الطريق يبتدئ في وسط أجمة صنوبر، نازلاً على طول الشاطئ، حتى الصخور. البحر هنا أكثر جمالاً، واسع، مشبع بالضوء.

كانت ليلابي تتقدم في طريق المهربين، ملاحظة أن البحر أصبح أكثر قوة. كانت الأمواج القصيرة تصطدم بالصخور التي بدورها ترسل موجات مضادة، تتقعر، تعود. توقفت الفتاة على الصخور كي تصغي إلى البحر. كانت تعرف جيداً هديره، الماء يتلاطم، يتفتت، ثم يتحد ويفجر الهواء، تحب هذا كثيراً. لكن اليوم، يبدو الأمر كما لو أنها تسمعه للمرة الأولى. لا يوجد شيء غير الصخور البيضاء، البحر، الريح، الشمس. كما لو أنها على قارب، بعيداً في عمق البحر، هناك حيث تعيش أسماك التون والدلافين.

لم تعد ليلابي تفكر بالمدرسة. البحر هكذا: يمحو أشياء الأرض، لأنه يحوي الأشياء الأكثر نفاسة في العالم. الزرقة والضوء الشاسعان، الريح، هدير الأمواج العنيف والهادئ، كان البحر يشبه حيواناً كبيراً، حيواناً يقلب رأسه ويسوط الهواء بذيله.

إذا، كانت ليلابي في أحسن أحوالها. ظلت جالسة على صخرة ملساء، على طرف طريق المهربين، وتنظر. كانت ترى الأفق الصافي، الخط الأسود الذي يفصل البحر عن السماء. نسيت الشوارع، المنازل، السيارات، الدراجات النارية.

ظلت لوقت طويل على صخرتها. ثم أخذت طريقها. لم يعد هناك منازل، المنازل الأخيرة أصبحت خلفها. استدارت ليلابي كي تراها، وجدتها مضحكة بشبابيكها المغلقة على واجهاتها البيضاء، كما لو أنها كانت تنام. هنا، لا توجد حدائق. بين الحصى، نباتات

كثيفة غريبة، كرات شوكية واخزة، صبار أصفر مغطى بندبات شوكية، عليق، عرائش. لا أحد يعيش هنا. كانت هناك فقط العظايا تركض بين الصخور، واثنان أو ثلاثة من الزنابير التي تطير فوق الأعشاب، التي لها رائحة العسل.

تشتعل الشمس بقوة في السماء. والصخور البيضاء تلمع، والزبد كان فاتناً كالثلج. يكون المرء سعيداً، هنا، كما لو أنه في آخر العالم. لا ينتظر شيئاً، لا يحتاج لأحد. نظرت ليلابي إلى الرأس البحري الذي كان يكبر أمامها، الجرف الصخري مكسور عمودياً على البحر. كان طريق المهربين يصل إلى حصن ألماني، مما يقتضي النزول إلى أخدود ضيق، تحت الأرض. داخل النفق، أصاب الهواء البارد الفتاة بقشعريرة. كان رطباً وداكناً كما لو أنها في مغارة. جدران الحصن مليئة برائحة العفونة والبول. أما الطرف الآخر من النفق، فقد كان ينفتح على مصطبة إسمنتية محاطة بجدار منخفض. نبت قليل من العشب في شقوق الأرض.

أغلقت ليلابي عينيها، مبهورة بالضوء. كانت تماماً تواجه البحر، الريح.

فجأة على جدار المصطبة، وجدت الإشارات الأولى. كانت كتابة بالطباشير، بأحرف كبيرة غير منتظمة تقول فقط:

«اعثروا علي»

نظرت ليلابي حولها للحظة، بعد ذلك قالت بصوت منخفض:

«نعم، لكن من أنت؟»

عبر خطاف بحر كبير فوق المصطبة زاعقاً.

هزت ليلابي كتفيها، ومضت في طريقها. أصبحت طريق المهربين أكثر صعوبة، لأنه كان قد دمر، ربما خلال الحرب الأخيرة، من قبل الذين بنوا الحصن. كان يقتضي الأمر الصعود والقفز من صخرة إلى أخرى، بمساعدة اليدين كيلا تنزلق. أصبح الشاطئ أكثر وعورة، وفي الأسفل، كانت ليلابي ترى الماء عميقاً، بلونه الزمردي، يلاطم الصخور.

لحسن الحظ، كانت تحسن السير جيداً على الصخور، بل كانت على دراية أفضل به من أي شيء آخر. يجب أن تخمن، بسرعة، بنظراتها، رؤية المعابر الصالح، الصخور التي يمكن الصعود عليها أو النزول منها، أن تكشف الطرق التي تقود إلى الأعلى: يجب تجنب الطرق المسدودة، الصخور الهشة، الصدوع، أدغال الشوك.

ربما يصلح هذا أن يكون تمريناً لدروس الرياضيات. «لنأخذ صخرة بزاوية ٤٥°، ولنأخذ صخرة أخرى على بعد ٢,٥ م من باقة وزال[1]، من أين يمر المماس؟» الصخور البيضاء شبيهة بمكتب خشبي، تخيلت ليلابي الوجه القاسي للآنسة لورتي جالسة فوق صخرة كبيرة بشكل شبه منحرف، وظهرها متجه نحو البحر. ربما لا يكون هذا، حقاً، مسألة لدروس الرياضيات: هنا، يقتضي الأمر قبل كل شيء تخمين أماكن الخطورة. «رسم خط عمودي على الأفق من أجل الاستدلال بوضوح على الاتجاه» هكذا كان يقول السيد

فيليبي. كان منتصباً بتوازن على صخرة مائلة، مبتسماً ابتسامة متسامحة. كان شعره يبدو كتاج تحت ضوء الشمس، وخلف نظارته الحسيرة البصر، كانت عيناه الزرقاوان تلمعان بغرابة.

كانت ليلابي مسرورة لاكتشافها بأن جسدها يجد الحل بسهولة للمسائل: تنحني إلى الأمام، إلى الخلف، تتوازن على ساق واحدة، ومن ثم تقفز بمرونة، كانت قدماها تهبطان، تماماً، في المكان المراد.

«جيد جداً، ياآنسة، جيد جداً» يقول صوت السيد فيليبي في أذنها «الفيزياء علم الطبيعة، لا تنسي هذا أبداً، تابعي بهذا الشكل، أنت على الطريق الصحيح».

«نعم، لكن إلى أين؟» تتمتم ليلابي. في الحقيقة، لم تكن تعرف، بشكل جيد، إلى أين يقودها هذا الطريق. ولكي تلتقط أنفاسها، وقفت أيضاً ونظرت إلى البحر، إلا أنه هنا، أيضاً، توجد مشكلة، مادام أنه يراد حساب زاوية انكسار ضوء الشمس على سطح الماء.

«لن أعرف أبداً»، تقول في داخلها.

«لنضع في التطبيق قوانين ديكارت» يصيح صوت السيد فيليبي في أذنها.

بذلت ليلابي جهداً كي تتذكر.

«الشعاع المنعكس». . . .

.... «يبقى دوماً على مستوى السقوط»، قالت ليلابي.

يقول فيليبي:

«جيد. القانون الثاني؟»

«عندما تزداد زاوية السقوط، فإن زاوية الانعكاس تزداد والنسبة بين جيبي هاتين الزاويتين تبقى ثابتة».

«ثابتة..»، يصيح الصوت «إذا؟»

«جيب زاوية السقوط/ جيب زاوية الانعكاس = ثابت»

«معامل الماء/ الهواء؟»

«١,٣٣»

«قانون فوكو؟»

«معامل وسط بالنسبة لآخر يساوي نسبة السرعة للوسط الأول على سرعة الوسط الآخر».

«من هنا؟»

«$N = V1 / V2$»

إلا أن أشعة الشمس كانت تتدفق من البحر دون توقف، وكان العبور من حالة انكسار الأشعة إلى حالة ارتداد الأشعة الكامل يتم بسرعة، بحيث أن ليلابي لا تستطيع أن تقوم بحساباتها. خطر ببالها أن تكتب فيما بعد إلى السيد فيليبي، كي تسأله.

الجو حار. بحثت الفتاة عن مكان تستطيع أن تستحم فيه.

فوجدت، على بعد مسافة قصيرة، خليجاً صغيراً، يحتوي على أنقاض رصيف. نزلت ليلابي إلى حافة الماء وخلعت ملابسها.

كان الماء صافياً، بارداً. غطست ليلابي دون تردد، شعرت بالماء وهو يضغط على مسامات جلدها. سبحت وقتاً طويلاً تحت الماء، بعينين مفتوحتين. ثم جلست على إسمنت الرصيف كي تجفف جسدها. الآن، الشمس في محورها الشاقولي، والضوء لم يعد يرتد. يلمع بقوة على القطرات المعلقة بجلد بطنها وعلى الزغب الناعم لفخذيها.

جعلها الماء البارد تشعر بالراحة. غسل أفكار رأسها، ولم تعد تفكر بمسائل المماسات ولا بالمعاملات المطلقة للأجسام. كانت ترغب أيضاً بكتابة رسالة لوالدها. أحضرت ورق الرسائل من حقيبتها، وبدأت تكتب بقلم ناشف، تماماً في أسفل الصفحة. تاركة آثاراً على الورقة من يديها المبلولتين.

«ليبي

أعانقك

تعال بسرعة لتراني هنا حيث أكون». .

ثم كتبت في وسط الصفحة:

«ربما أقوم ببعض الحماقات، لا أستحق أن يحقد علي، كان لدي الانطباع بأني مسجونة، إنك لا تستطيع أن تدرك ذلك، ربما تدرك كل ذلك، إلا أنك تملك الشجاعة للبقاء، ليس أنا، تخيل كل هذه الجدران في كل مكان، جدران كثيرة لا تستطيع عدها، مع الأسلاك الحديدية الشائكة،

الأسيجة، قضبان النوافذ . . . تخيل الباحة بكل هذه الأشجار التي أكرهها، أشجار الكستناء، الزيزفون، الدلب، خصوصاً، الدلب البغيض، تفقد بشرتها، ويقال إنها مريضة» . . .

قليلاً إلى الأعلى، كتبت :

«أتدري . . هناك الكثير من الأشياء التي أريدها . هناك الكثير، الكثير، الكثير .

أشياء أريدها، لا أدري إذا كنت أستطيع أن أذكرها لك . أشياء تفتقد كثيراً هنا، أشياء كنت أحبها منذ زمن بعيد . العشب الأخضر، الزهور والطيور، الأنهار . لو كنت هنا، لاستطعت أن تكلمني عنها وأن أراها حولي، لكن في المدرسة الثانوية، لا يوجد أحد يستطيع أن يتكلم عن هذه الأشياء، الفتيات غبيات ليس لديهن غير البكاء . . . والفتيان حمقى . . لا يحبون إلا دراجاتهم النارية وستراتهم» . . .

تصعد إلى أعلى الصفحة .

«بابا العزيز،

نهار سعيد . أكتب لك من شاطئ صغير جداً، صغيرٌ، لدرجة أني أعتقد أنه شاطئ بمكان واحد مع رصيف مدمر عليه أجلس الآن (بعد أن استحممت) . يريد البحر أن يأكل الشاطئ الصغير، يرسل لسانه إلى العمق، ولا توجد طريقة كي يبقى جافاً . . سترى الكثير من بقع ماء البحر على رسالتي، أتمنى أن يرضيك هذا، إني وحدي هنا، إلا أني أستمتع بشكل جيد . الآن، لن أعاود الذهاب إلى المدرسة أبداً، هذا قرار نهائي . لن أذهب أبداً، حتى ولو وضعت في سجن . وهذا لن يكون الأسوأ» .

لم يبق كثير من الفراغ على الورقة. لذلك، أخذت ليلابي تتسلى بسد الفراغات الواحد بعد الآخر، بكتابة كلمات، مقاطع عبارات، دون ترابط:

«البحر أزرق»

«شمس»

«أرسل لي السحلبيات البيض»

«ياللأسف لا توجد هنا أكواخ من الخشب»

«أكتب لي»

«هناك قارب يعبر، إلى أين هو ذاهب ياترى؟»

«أريد أن أكون على جبل كبير»

«قل لي، كيف يكون الضوء عندك»

«كلمني عن صيادي المرجان»

«كيف حال سلوقي»

وتغلق الفراغات البيضاء الأخيرة بكلمات:

«طحالب»

«مرآة»

«بعيد»

«حباحب»

«رالي»

«رقاص»

«كزبرة»

«نجمة»

بعد ذلك ثنت الورقة ووضعتها في المغلف، مع ورقة عشب برائحة العسل.

حين صعدت عبر الصخور، رأت للمرة الثانية إشارات غريبة مكتوبة بالطبشور على الصخور. كان هناك أيضاً أسهم كي تشير إلى الطريق. على صخرة ملساء كبيرة، قرأت:

«لا تتراجع»...

وعلى مسافة قصيرة:

«ربما سينتهي كل هذا في ذيل سمكة»

نظرت ليلابي، من جديد، حولها، فلم تر أحداً بين الصخور، أيضاً في البعيد حيث تستطيع الرؤية. تابعت طريقها. تسلقت، عاودت النزول، قفزت فوق الشقوق، إلى أن وصلت في النهاية إلى طرف الرأس البحري، حيث كان هناك، هضبة حجارة، والمنزل اليوناني.

وقفت ليلابي، مذهولة. أبداً لم تر منزلاً بهذا الجمال. بني وسط الصخور والنباتات الكثيفة، مواجهاً البحر، مربع وبسيط مع شرفة مسنودة بستة أعمدة، كان يشبه معبداً صغيراً. بياضه فاتن، جاثم مقابل الجرف الشديد الانحدار، والذي يحميه من الريح والنظرات.

اقتربت ليلابي، ببطء، من المنزل، بقلب يخفق بقوة. لم يكن هناك أحد، لابد أنه مهجور منذ سنين، لأن الأعشاب والعرائش غزت الشرفة، والأرجوانيات تلف محيط الأعمدة.

حين أصبحت قريبة من المنزل، رأت كلمة محفورة فوق البوابة، في جبصين أعمدة الواجهة:

ΧΑΡΙΣΜΑ

قرأت ليلابي الاسم بصوت عال، معتقدة أنه لا يوجد أبداً منزل له جمال هذا الاسم.

كان المنزل محاطاً بسياج شبكي صدئ. مشت ليلابي بمحاذاة السياج كي تجد مدخلاً. إلى أن وصلت إلى مكان، كان فيه السياج مرفوعاً، ومن هناك عبرت على أربع. لم تكن خائفة، كل شيء كان صامتاً. مشت ليلابي في الحديقة إلى أن وصلت إلى سلم الشرفة، ووقفت أمام بوابة المنزل. بعد لحظة تردد، دفعت الباب. كان داخل المنزل مظلماً، مما دعاها أن تنتظر حتى تتعود عيناها الرؤية. رأت غرفة واحدة بجدران تالفة، وبأرضية مليئة ببقايا خرق قديمة وجرائد. كان داخل المنزل بارداً. دون شك، لم تكن النوافذ مفتوحة منذ سنين. حاولت ليلابي فتح أحد أبواب النوافذ، إلا أنه كان مستعصياً على الفتح. حين اعتادت عيناها على العتمة، رأت ليلابي أنها لم تكن الوحيدة التي دخلت إلى هنا. كانت الجدران مغطاة برسوم فاحشة. مما جعلها تغضب، كما لو أن المنزل، كان حقاً منزلها. حاولت مسح الرسوم بخرقة. ثم خرجت إلى الشرفة، وسحبت بقوة الباب مما جعل مقبض الباب ينكسر، وجعلها تقع.

إلا أنه من الخارج، كان المنزل جميلاً. جلست ليلابي على الشرفة مستندة إلى أحد الأعمدة، ومحدقة إلى البحر أمامها. كان شيئاً جميلاً، فقط هدير الماء والريح التي تهب بين الأعمدة البيضاء. ومن بينها، كان البحر والسماء يبدوان دون حدود. لم تعد هنا الأرض، لم يعد لها جذور. كانت الفتاة تتنفس ببطء، بظهر منتصب وبرقبة مستندة إلى عمود معتدل الحرارة، وكانت تشعر في كل مرة تستنشق فيها الهواء، كما لو أنها ترتفع في السماء الصافية، فوق البحر. وكان الأفق كخط رقيق ينحني كقوس، والضوء يرسل أشعته المستقيمة، كما لو أنها في عالم آخر، على حافة موشور.

كانت ليلابي تنصت إلى صوت يأتي من الريح، يتحدث قرب أذنيها. لم يكن صوت السيد فيليبي، لكنه صوت قديم جداً، اجتاز السماء والبحر. صوت رقيق وخفيض يتردد حولها، في الضوء الحار يردد اسمها القديم، الاسم الذي سماها به والدها ذات يوم، قبل أن تغفو.

«أريل. . . أريل. .

بهدوء، ثم شيئاً فشيئاً بصوت مرتفع، كانت ليلابي تغني الهواء الذي لم تنسه منذ سنين كثيرة».

«أرشف أينما يرشف النحل

في أجراس الربيع أستلقي:

هناك أستلقي حين تصرخ البوم.

على ظهر الخفاش أطير

بعد الصيف، بمرح:

سأعيش الآن، تحت الأزهار التي تتدلى على الغصن، بمرح، بمرح»[٢].

كان صوتها المضيء يذهب إلى الفضاء الطلق، يحملها فوق البحر. كانت ترى كل شيء، وراء الشطآن الغامضة، وراء المدن، الجبال. كانت ترى طريق البحر العريض، حيث تتقدم خطوط الأمواج، كانت ترى الطرف الآخر من البحر، الشريط الطويل للأرض الرمادية والداكنة حيث تنمو غابات الأرز، بل أكثر بعداً، كالخيال، الذروة الثلجية لكاها يالبور.

ظلت ليلابي لوقت طويل جالسة مستندة إلى الأعمدة، تنظر إلى البحر وتغني لنفسها كلمات أغنية أريل، وأغاني أخرى، التي ابتكرها والدها. ظلت إلى أن أصبحت الشمس قريبة من خط الأفق، وإلى أن أصبح البحر بنفسجياً.

غادرت المنزل اليوناني، متبعة طريق المهربين في اتجاه المدينة. حين وصلت إلى جانب الحصن، لمحت فتى صغيراً عائداً من الصيد. التفت لينتظرها.

«مساء الخير...»، قالت ليلابي.

«مرحباً...» قال الفتى.

على وجهه تبدو علامات الجدية، يخفي عينيه بنظارة. كان يحمل سنارة كبيرة وكيس صيد، ويعلق حذاءه حول عنقه كي يمشي.

مشيا معاً، يتكلمان. عندما وصلا إلى آخر الطريق، كان قد بقي للنهار عدة دقائق، لذلك جلسا على الصخور لرؤية البحر. لبس الفتى حذاءه. وروى لليلابي قصة نظارته. فقال إنه في يوم من الأيام، منذ سنين عديدة، أراد رؤية كسوف الشمس ومنذ ذلك الوقت تركت له الشمس علامة في عينيه.

أثناء هذا الوقت، اختفت الشمس. ورأيا المنارة تضاء، ثم مصابيح ومواقع أضواء الطائرات. اسودَّ الماء. فنهض الفتى أولاً. التقط سنارته وكيسه وأشار لليلابي قبل أن يغادر.

حين ابتعد قليلاً، صرخت ليلابي:

«غداً، ارسم لي صورة»..

هز الفتى رأسه، مجيباً: نعم.

٢

منذ أيام وليلابي تذهب ناحية المنزل اليوناني. كانت تحب اللحظة التي تعقب القفز على كل الصخور، تلهث بقوة من الركض والتسلق في كل مكان، تمتلئ نشوة من الريح والضوء، ترى مقابل الجرف، انبثاق الظل الأبيض الغامض الذي يشبه قارباً مربوطاً. في تلك الأيام، كان الجو لطيفاً، السماء والبحر أزرقان، والأفق صاف بحيث يمكن رؤية ذرى الأمواج. حين تصل ليلابي أمام المنزل، تقف وقلبها يخفق بسرعة وبقوة، شاعرة بحرارة غريبة في عروق جسدها، بالتأكيد أن هناك سراً في هذا المكان.

كانت الريح تهب مباغتة، وكانت ليلابي تشعر بضوء الشمس الذي يغطيها برقة، مكهرباً بشرتها وشعرها. تتنفس بعمق أكثر، كما لو أنها ستسبح طويلاً تحت الماء.

ببطء، تدور حول السياج، إلى أن تصل المدخل. كانت تقترب من المنزل، وهي تنظر إلى الأعمدة الستة التي ابيضّت بفعل الضوء.

وبصوت عال، كانت تتفوه بالكلمة السحرية المكتوبة في جبصين الواجهة، ربما بسبب هذه الكلمة كانت تشعر بهذا القدر من السلام والضوء:

"KARISMA"

كانت الكلمة تشع في داخل جسدها، كما لو أنها كانت مكتوبة في داخلها، أو كما لو أن الكلمة تنتظرها. كانت ليلابي تجلس على أرض الشرفة، مستندة إلى العمود اليميني الأخير، ناظرة إلى البحر.

كانت الشمس تحرق وجهها. وأشعة الضوء تخرج من جسدها، من أصابعها، من عيونها، من فمها، من شعرها، منضمة إلى لمعان الصخور والبحر.

الصمت يملأ المكان، صمت كبير وقوي، مما يدخل إحساس الموت إلى ليلابي. بسرعة، تخرج الحياة منها وتغادر، ذاهبة إلى السماء والبحر. كان ذلك عسيراً على الفهم، إلا أن ليلابي كانت متأكدة أن الموت يحدث هكذا. يبقى جسدها حيث هو، في وضع الجلوس، الظهر مسنود على العمود الأبيض، مغطى بالحرارة والضوء. إلا أن الحركة تغادرها، تذوب أمامها. لا تستطيع أن تمسك بها. تشعر بكل شيء يغادرها، يبتعد عنها بسرعة كبيرة كطيران الزرازير، كاندفاعات الغبار. كل حركتها: حركة ذراعيها وساقيها، اضطرابها الداخلي، القشعريرة، الرجفة. كل هذا يغادرها بسرعة، إلى الأمام، مرمياً إلى الفضاء نحو الضوء والبحر. كان شيئاً رائعاً، لم تكن تقاومه. لم تكن تغلق عينيها. تتسع حدقتاها، تنظر أمامها، دون أن ترمش، دائماً إلى نفس النقطة، إلى الخط الرقيق للأفق، هناك حيث الثنية التي تفصل السماء والبحر.

يتباطأ تنفسها شيئاً فشيئاً، وفي صدرها، يباعد القلب بين دقاته، ببطء، ببطء. تبدو كما لو أن الحياة قد غادرتها، فقط، نظرتها التي تتسع، التي تمتزج في الفضاء كحزمة ضوء. تشعر ليلابي بجسدها ينفتح برقة، كباب، وتنتظر الانضمام إلى البحر. تعرف بأنها سترى كل هذا، قريباً، لذلك، لا تفكر بشيء، لا تريد أي شيء آخر. جسدها يبقى بعيداً في الخلف، يصبح شبيهاً بالأعمدة البيضاء وبالجدران المغطاة بالجبصين ساكناً، صامتاً. هذا هو سر المنزل. الوصول إلى أعلى البحر، تماماً، إلى قمة الجدار الكبير الأزرق، إلى المكان الذي تستطيع منه رؤية الشاطئ الآخر. كانت نظرة ليلابي تتسع، تطير في الهواء، على الضوء، فوق الماء.

لم يكن جسدها بارداً كالموتى في غرفهم. كان الضوء يتابع الدخول إلى عمق أحشائها، إلى مخ عظامها، كانت تعيش بنفس حرارة الهواء، كالعظايا.

كانت ليلابي كغيمة، كغاز، اختلطت بكل ما حولها. كانت كرائحة الصنوبر المسخن بحرارة الشمس، على التلال، كعشب له رائحة العسل. كان رذاذ أمواج حيث يزدهي قوس قزح، كانت الريح، النسمة الرطبة القادمة من البحر، النسمة الحارة كأنفاس الأرض المخمرة على سفح الأدغال. كانت كالملح، الملح الذي يلمع كالندى الفضي على الصخور العتيقة، أو كملح البحر، الملح الثقيل الحريف في أودية ما تحت البحار. لم يعد هناك ليلابي واحدة جالسة على شرفة منزل يوناني عتيق يعمه الخراب. تعددت ليلابي كبريق الضوء على الأمواج.

كانت ليلابي ترى بكل عيونها، من كل الجهات. كانت ترى أشياء لم تكن لتتخيلها. أشياء صغيرة جداً، مخابئ حشرات، دهاليز الدود. كانت ترى أوراق نباتات كثيفة، جذوراً. كانت ترى أشياء كبيرة جداً، ما وراء الغيوم، النجوم خلف قبة السماء، المجموعات القطبية، الأودية الكبيرة للبحر اللانهائية العمق. كانت ترى كل هذا في اللحظة ذاتها، كل نظرة كانت تستمر أشهراً، سنوات. كانت ترى دون أن تفهم، لأن الذي كان يجوب الفضاء أمامها، حركة جسدها المنفصلة عنه.

كان ذلك كما لو أنها استطاعت، بعد الموت، معاينة القوانين التي تشكل العالم. كانت قوانين غريبة، لا تشبه القوانين المكتوبة في الكتب، والتي نتعلمها عن ظهر قلب في المدرسة إطلاقاً. كان هناك قانون الأفق الذي يجذب الجسد، قانون طويل جداً ورقيق جداً، شعاع واحد قاس يوحد طبقتي السماء والبحر. هناك، كان كل شيء يولد، يتضاعف مشكلاً أسراب أرقام وإشارات، تحجب الشمس وتبتعد نحو المجهول. كان هناك قانون البحر، دون بداية ولا نهاية، حيث تتكسر أشعة الضوء. كان هناك قانون السماء، قانون الريح، قانون الشمس، قوانين لا يمكن فهمها، لأن إشاراتها لا تنتمي إلى البشر.

فيما بعد، عندما استيقظت ليلابي، حاولت تذكر الذي رأته. أرادت كتابة كل هذا للسيد فيليبي، ربما يستطيع أن يفهم معاني هذه الأرقام والإشارات. إلا أنها لم تجد غير فتات عبارات، رددتها عدة مرات بصوت عال:

«هنا حيث نشرب البحر»

«نقاط ارتكاز الأفق»

«عجلات (أو طرق) البحر»

هزت كتفيها، لأن هذا لم يكن ذات معنى.

غادرت ليلابي، بعد ذلك، مكانها، خرجت من حديقة المنزل اليوناني ونزلت نحو البحر. عادت الريح بغتة، فأطارت شعرها وثيابها، كما لو أنها أرادت أن تعيد ترتيب كل شيء.

كانت ليلابي تحب هذه الريح. أرادت أن تعطيها شيئاً ما، لأن الريح، غالباً ما تحتاج إلى أن تأكل، أوراق شجر، غباراً، قبعات الرجال، أو قطرات الماء التي تنتزعها من البحر أو الغيوم.

كانت ليلابي تجلس في تجويف صخرة، بالقرب من الماء حيث كانت الأمواج تأتي لتلامس قدميها. كانت الشمس ساطعة فوق البحر، كانت تبهرها بانعكاسها على جوانب الأمواج.

لم يكن هناك أحد غير الشمس والريح والبحر، أخذت ليلابي علبة الرسائل من حقيبتها. كانت تسحبها رسالة، رسالة مبعدة الخيط المطاطي، كانت تقرأ عدة كلمات، عدة عبارات، دون تعيين. كانت أحياناً لا تفهم شيئاً، فتعيد القراءة بصوت عال ليكون ذلك أكثر صدقاً.

.. «القماش الأحمر الذي يرفرف كالأعلام»..

«النرجس الأصفر على مكتبي، بالقرب من نافذتي، هل ترينه ياأريل؟»

«أسمع صوتك تتكلمين في الهواء. . . . »

«. . . أريل، هواء أريل». . .

«من أجلك، من أجل أن تذكري دائماً»

كانت ليلابي تلقي الأوراق في الريح. كانت تطير بسرعة مع صوت تمزيقها، تطير للحظة فوق البحر، يترنح كالفراش في الزوبعة. أوراق رسائل متشحة بالزرقة، تختفي فجأة في البحر. كان ممتعاً إلقاء هذه الأوراق في الريح، بعثرة هذه الكلمات، كانت ليلابي ترى الريح تأكلها ببهجة.

كانت ليلابي راغبة بإشعال نار. بحثت بين الصخور عن مكان لا تهب فيه الريح بقوة. وعلى بعد مسافة قصيرة وجدت الخليج الصغير ذا الميناء المهدم، لتستقر فيه.

كان مكاناً جيداً لإشعال النار. كانت الصخور البيضاء تحيط بالميناء، وهبات الريح لا تصل إلى هنا. في قاعدة الصخرة، كان تجويف جاف وحار، وسرعان ما ارتفع اللهب، خفيفاً، فاقعاً، مع رجفة ناعمة. كانت ليلابي تلقي فيها دون توقف أوراقاً جديدة، تشتعل بسرعة لأنها كانت جافة ورقيقة، وسرعان ما تتلاشى.

شيء ممتع رؤية الأوراق الزرقاء تتلوى في النار، والكلمات تهرب متقهقرة إلى جهة مجهولة. خطر في بال ليلابي أن أباها يحب أن يكون هنا لرؤية احتراق رسائله. لأنه لا يكتب كلمات كي تبقى. قال ذلك لها، ذات يوم، على الشاطئ، كان قد وضع رسالة في زجاجة قديمة زرقاء، ليرميها بعيداً في البحر. كلمات لأجلها فقط،

كي تقرأها وتسمع صخب صوته، والآن، تستطيع الكلمات أن تعود من المكان الذي جاءت منه، بسرعة، على هيئة ضوء ودخان، في الهواء، وتصبح غير مرئية. ربما يرى أحدهم من الطرف الآخر للبحر الدخان واللهب الذي يلمع كالمرآة، ويفهم.

تغذي ليلابي النار بأخشاب وبأغصان صغيرة وبالأشنيات الجافة من أجل أن يستمر اللهب. كان الهواء يفوح بكل أنواع الروائح، رائحة خفيفة ومحلاة قليلاً لورق الرسائل، الرائحة القوية للفحم والخشب، الدخان الثقيل للأشنيات. كانت ليلابي تنظر إلى الكلمات التي تغادر بسرعة، أسرع من الأفكار كالوميض. من وقت لآخر، كانت تتعرف عليها مشوهة وغريبة، ملوية من النار، وكانت ليلابي تضحك.

فجأة، شعرت ليلابي بوجود أحد خلفها، فاستدارت. كان الفتى الصغير ذو النظارة ينظر إليها، منتصباً على صخرة فوقها. ما زالت سنارته، في يده وحذاءه معقود حول عنقه.

سألها: «لماذا تحرقين الورق؟»

ابتسمت ليلابي له.

قالت: «لأن ذلك ممتع . . . . انظر» . .

وضعت في النار ورقة كبيرة زرقاء رسم عليها شجرة.

قال الفتى الصغير: «إنها تحترق جيداً».

«أترى، كانت راغبة في الاحتراق» تشرح ليلابي. «كانت

تنتظر هذا من وقت طويل، كانت جافة كأوراق ميتة، لهذا السبب، تحترق جيداً».

وضع الفتى الصغير ذو النظارة سنارته وذهب يحضر الأغصان الصغيرة من أجل النار. أمضيا لحظات ممتعة في إحراق كل ما يستطيعان إحراقه. اسودَّت يدا ليلابي من الدخان ووخزتها عيناها. تعب الاثنان وانهكا من انشغالهما بالنار. والآن، بدت النار متعبة، أيضاً. لهبها أصبح قصيراً، وانطفأت الأغصان الصغيرة والأوراق واحدة وراء واحدة.

قال الفتى الصغير وهو يمسح نظارته: «ستنطفئ النار».

«لأنه لم يعد هناك رسائل. هذا ما تريده».

أخرج الفتى الصغير من جيبه ورقة مثنية أربع ثنيات.

سألت ليلابي «ما هذه؟» أخذت الورقة وفتحتها. كانت رسماً لامرأة بوجه أسود. تعرفت ليلابي فيها على كنزتها الصوفية الخضراء.

«أهذا رسمي؟»

«رسمته لأجلك»، قال الفتى الصغير. «لكن بإمكاننا إحراقه».

إلا أن ليلابي ثنت الرسم ونظرت إلى انطفاء النار.

سأل الفتى الصغير: «ألا تريدين إحراقه الآن؟».

قالت ليلابي: «لا، ليس اليوم».

بعد انطفاء النار، انطفأ الدخان، وهبت الريح على الرماد.

قالت ليلابي: «سأحرقه عندما أحبه كثيراً».

ظلا لوقت طويل جالسين على الرصيف. ينظران إلى البحر دون أن يتكلما. كانت الريح تمر على البحر، مثيرة الرذاذ الذي كان يخز وجهيهما. كان ذلك كما لو أنهما جالسين على مقدمة قارب، في عرض البحر، لم يكن يسمع شيئاً آخر، سوى صخب الأمواج وعزيف الريح الممتد.

عندما بلغت الشمس كبد السماء في الظهيرة، نهض الفتى الصغير ذو النظارة والتقط سنارته وحذاءه.

قال: «أنا ذاهب».

«ألا تريد البقاء؟»

«لا أستطيع، علي أن أعود.» نهضت ليلابي هي الأخرى.

سأل الفتى الصغير: «استبقين هنا؟».

«لا، سأذهب هناك، أبعد».

صعدت على الصخور، في آخر الرأس البحري.

«هناك، يوجد منزل آخر، إلا أنه أكبر، يقال إنه مسرح.» شرح الفتى الصغير لليلابي. «يجب تسلق الصخور، وبعد ذلك يمكن الدخول من الأسفل».

«هل ذهبت إلى هناك؟»

نعم، غالباً. إنه جميل، إلا أنه يصعب الوصول إليه».

وضع الفتى الصغير حذاءه حول عنقه وابتعد بسرعة.

قالت ليلابي: «إلى اللقاء..».

قال الفتى الصغير: «مع السلامة..».

مشت ليلابي نحو الرأس. ركضت، قافزة من صخرة إلى أخرى. لم يعد هناك طريق. يجب تسلق الصخور، بالتشبث بجذور الخلنج والأعشاب. كانت بعيدة، ضائعة وسط الصخور البيضاء، معلقة بين السماء والبحر. بالرغم من برودة الريح، كانت ليلابي تشعر بأشعة الشمس المحرقة، تنضح عرقاً تحت ثيابها. كانت حقيبتها تزعجها، لذلك قررت إخفاءها في مكان ما، لأخذها فيما بعد. طمرتها في حفرة، في سفح شجرة صبارة كبيرة. أغلقت المخبأ بحجرين أو ثلاثة.

فوقها، الآن، كان يربض المنزل الإسمنتي الغريب الذي تكلم عنه الفتى الصغير. للوصول إليه، كان ينبغي صعود الركام. كانت الأنقاض البيضاء تلمع في ضوء الشمس. ترددت ليلابي للحظة، لأن كل شيء في هذا المكان يلتف بالغرابة والصمت. فوق البحر كان معلقاً بالجدار الصخري بجدرانه الاسمنتية العالية الخالية من النوافذ.

كان هناك طير يحلق فوق الأنقاض، امتلأت ليلابي فجأة بالرغبة بأن تكون في الأعلى. بدأت تتسلق الركام. كانت نتوءات الأحجار تكشط يديها وركبتيها، تنزلق خلفها كتل جرفية صغيرة. عندما وصلت إلى الأعلى، استدارت لترى البحر، ولكي لا تصاب بالدوار اضطرت إلى إغلاق عينيها. تحتها، لم يكن هناك بعيداً حيث

يمتد النظر سوى البحر، الشاسع، الأزرق، البحر يملأ الفضاء إلى الأفق الكبير، الذي يبدو كسقف بلا نهاية، قبة عملاقة من معدن داكن، حيث تتحرك كل تجاعيد الأمواج. كانت السماء تشتعل فوقها، أما هي، فكانت ترى البقع والطرق المعتمة، غابات الأشنيات، آثار الزبد. كانت الريح تكتسح البحر دون توقف، تصقل سطحه.

فتحت ليلابي عينيها ونظرت إلى كل شيء، متشبثة بالصخور بأظافرها. البحر كان جميلاً جداً، خيل إليها، بأنه كان يجتاز رأسها وجسدها بسرعة، بأنه كان يحمل إليها آلاف الأفكار، دفعة واحدة.

ببطء، وحذر، اقتربت ليلابي من الأنقاض. كان الأمر ما قاله الفتى الصغير ذو النظارة، مسرح بجدران كبيرة من الاسمنت المسلح. نمت النباتات بين الجدران العالية، عوسج وعرائش غطت، تماماً، الأرض. على الجدران، كان هناك سقف خرساني، مثقوب في بعض الأماكن. كانت الريح تندفع من الأبواب والنوافذ، من كل جهة من البناء، مع هبات قوية تدفع حديد التسليح الخرساني للسقف إلى الحركة. كانت الصفائح المعدنية تتلاطم مصدرة موسيقا غريبة، فيما ليلابي ظلت ساكنة للإنصات إليها. كانت كصرخات خطاف البحر وكهدير الموج، موسيقا عجيبة، خيالية، دون إيقاع، تجعل المرء يصاب بالقشعريرة. عادت ليلابي إلى المسير بمحاذاة الجدار الخارجي كان يوجد طريق ضيق يعبر بين العوسج، يقود إلى سلم هدم نصفه. صعدت ليلابي درجات السلم، ووصلت إلى منصة، تحت السقف

يمكن رؤية البحر من خلال ثغر. جلست ليلابي في ذاك المكان، مقابل الأفق، تحت الشمس، تتابع النظر إلى البحر. ثم أغلقت عينيها.

فجأة، اختلجت ليلابي، لأنها قد شعرت بوصول شخص ما. لم تكن هناك أي ضجة سوى حركة الصفائح الحديدية للسقف بفعل الرياح، مع ذلك شعرت بالخطر. في الطرف الآخر من الأنقاض، على الطريق الذي يعبر العوسج، وصل شخص ما. كان رجلاً يرتدي سروالاً من كتان، بوجه أسود من الشمس، بشعر أشعث. يمشي دون أن يصدر أي ضجة، متوقفاً من وقت إلى آخر، كما لو أنه يبحث عن شيء ما. ظلت ليلابي ساكنة ملتصقة بالحائط، بقلب يخفق، راجية أن لا يراها. دون أن تفهم لماذا، كانت تعلم أن الرجل يبحث عنها، حبست أنفاسها كيلا يسمعها. إلا أنه حينما اجتاز الرجل نصف الطريق، رفع رأسه بهدوء ورأى الفتاة. كانت عيناه الخضراوان تلمعان بغرابة في وجهه الداكن. ودون أن يسرع، بدأ يمشي نحو السلم. إلا أن الوقت أصبح متأخراً للنزول، بقفزة واحدة، خرجت ليلابي من الثغر وتسلقت السقف. كانت الريح تهب بقوة لدرجة أنها كادت أن تقع. أسرعت بقدر ما تستطيع، راكضة نحو الطرف الآخر للسقف، تسمع وقع قدميه بين أنقاض الصالة الكبرى. قلبها يخفق بقوة في صدرها. حين وصلت إلى نهاية السقف، توقفت، أمامها، كانت تفصلها حفرة كبيرة عن جدار الجرف. أنصتت حولها. لم يكن هناك شيء سوى صخب الريح في الصفائح المعدنية للسقف، إلا أنها كانت تعرف أن الرجل المجهول لم

يكن بعيداً، كان يركض في الطريق وسط العوسج ليدور حول الأنقاض ويجيء من الخلف. لذلك قفزت ليلابي. ساقطة على انحدار الجرف، التوى كاحلها الأيسر، وشعرت بالألم، صارخة فقط: «أي.».. .

انبثق الرجل أمامها، دون أن تفهم من أين. كانت يداه مخدوشتين بالعوسج، يلهث قليلاً. ظل ساكناً أمامها، عيناه الخضراوان جامدتان كقطع صغيرة من الزجاج. أهو الذي كتب الرسائل بالطبشور، طوال الطريق على الصخور؟ أهو الذي دخل البيت اليوناني الجميل، ووسخ الجدران بالعبارات الفاحشة؟ كان قريباً جداً منها لدرجة أنها شمت رائحته، رائحة عرق لا طعم لها، واخزة، أشبعت ثيابه وشعره. فجأة، خطا خطوة إلى الأمام، فم مفتوح، عينان ضيقتان قليلاً. رغم الألم في كاحلها، قفزت ليلابي وبدأت النزول من الجرف. حين وصلت إلى أسفل الجرف، توقفت واستدارت. أمام الجدران البيضاء للأنقاض، كان الرجل يقف بذراعين متباعدتين، كمن يحاول أن يحافظ على توازنه.

كانت الشمس قوية فوق البحر، وبفضل الريح الباردة، شعرت ليلابي بأنها كانت تسترد قوتها. شعرت أيضاً بالاشمئزاز وبالغضب اللذين حلا شيئاً فشيئاً محل الخوف. وفجأة، فهمت بأنه لا شيء يمكن أن يصيبها. كانت الريح، البحر، الشمس. تذكرت كلام أبيها الذي قال لها يوماً بخصوص الريح، البحر، الشمس، عبارة طويلة تتحدث عن الحرية والفضاء، شيئاً من هذا القبيل. وقفت ليلابي على صخرة تشبه مقدمة سفينة، فوق البحر، وأرجعت

رأسها إلى الخلف، كي تشعر بشكل أفضل بحرارة الضوء على جبهتها وجفنيها. كان والدها هو الذي علمها فعل ذلك، كي تسترد قواها، كان يسمي هذه الحركة: «شرب الشمس.»

نظرت ليلابي إلى البحر الذي كان يتهادى أمامها، ملاطماً الصخور بهيجانه وفقاعاته. تركت جسدها يسقط في الماء، الرأس أولاً، ثم غطست في الموجة. لفها الماء البارد ضاغطاً على طبلة الأذن وفتحتي أنفها، ورأت بعينيها بريق فاتن. عندما صعدت إلى سطح الماء، نفضت شعرها وأطلقت صرخة. كانت الأرض خلفها تهتز كسفينة ضخمة رمادية، مثقلة بالحجارة والنباتات. في القمة، كان المنزل الأبيض المتهدم يشبه ممراً مفتوحاً نحو السماء.

للحظة، تركت ليلابي نفسها لحركة الموج البطيئة، كانت ملابسها ملتصقة بجسدها كالأشنيات. ثم بدأت تسبح سباحة الكرول لمسافة طويلة، نحو العمق إلى أن ابتعد الرأس وإلى أن أصبح الخط الشاحب لبنايات المدينة بالكاد مرئياً في الجو السديمي.

٣

كل مـا يجـري لا يمكـن أن يدوم طويلاً. كـانت ليـلابي تدرك ذلك. فكل هؤلاء الناس، في المدرسـة، في الشـارع. كـانـوا يرون ويتحدثون كثيراً. هناك فتيات، أوقفن ليلابي كي يقلن لها بأنها تبالغ قليلاً، وبأن مديرة المدرسة وكل الناس يعلمون جيداً بأنهـا لم تكن مريضـة. بالإضافة إلى الرسائل التي كانت تطلب تفسيـراً للأمر. فتحـتـهـا ليلابي مجيبـة باسم أمهـا، حتى إنهـا، ذات يوم، اتصلت هاتفياً بمكتب مراقب المدرسة، مقلدة صوت أمها كي تشرح له مرض ابنتها الشديد، وبأنها لا تستطيع العودة إلى المدرسة.

كانت ليـلابي تدرك أن كل هذا لا يمكن أن يدوم. كتـب السيد فيليبي لها رسالة ليست بالطويلة جداً، رسالة غريبة كي يطلب إليها العودة. وضعـت ليلابي الرسالة في جيب سترتهـا، كـانت تحـملهـا دائماً معـهـا. أرادت أن تجيبه كي تشرح له، إلا أنها كـانت خائفة من احتمال قراءة المديرة للرسالة، وبالتالي ستعلم بأنهـا لم تكن مريضة، وبأنها كانت تتنزه.

في الصباح، حين خرجت من الشقة، كان الجو رائعاً. وأمهـا لا تزال نائمـة، بسبب الحبوب التي تتناولهـا كل مساء منذ الحادث. حين نزلت ليلابي إلى الشارع، خطف الضوء بصرها.

السماء بيضاء، والبحر يلمع. كالعادة، سارت ليلابي في طريق المهربين. كانت الصخور البيضاء تبدو كصخور جليدية عائمة على الماء. سارت ليلابي للحظة بمحاذاة الشاطئ، منحنية قليلاً إلى الأمام في وجه الريح. دون أن تجرؤ على الوصول إلى المنصة الإسمنتية بعد الحصن. كانت تتمنى رؤية المنزل اليوناني ذي الأعمدة الستة، لتجلس وتترك خيالها يحلق في أعماق البحر. إلا أنها خافت من لقاء الرجل ذي الشعر الأشعث الذي يكتب على الجدران والصخور. لذلك، جلست على صخرة على طرف الطريق، تحاول تخيل المنزل. كان صغيراً، جاثماً قبالة الجرف، أبوابه مغلقة. ربما من الآن وصاعداً، لن يدخله أحد. فوق الأعمدة، على تيجانه المثلثية، كان اسمه مضاء بأشعة الشمس:

XAPIΣMA

كانت هذه الكلمة، الكلمة الأكثر جمالاً في العالم.

مستندة إلى الصخرة، نظرت ليلابي إلى البحر، مدة طويلة، مرة أخرى، كأنها يجب أن لا تراه. كانت الأمواج المتراصة تتهادى بعيداً حتى الأفق. والضوء يومض فوق ذراها، كزجاج مهروس. والريح المملحة تهب. كان البحر يهدر بين فجوات الصخور، وأغصان الشجر الصغيرة تصدر فحيحها. تترك ليلابي نفسها مرة أخرى للنشوة الغريبة للبحر والسماء الخاوية. في نحو الظهيرة، تدير ظهرها للبحر، وتتبع الطريق الذي يؤدي إلى مركز المدينة.

في الشوارع، لم تعد الريح نفسها. كانت تدور حول نفسها، تعبر بهبات، تصفق أبواب النوافذ، مثيرة غشاوة الغبار. كان الناس

لا يحبون الريح، كانوا يجتازون الشوارع بعجلة، ملتجئين إلى زوايا الجدران.

الريح والجفاف شحنا كل شيء بالكهرباء. يتقافز الناس بعصبية، يتشاتمون، يتصادمون، وعلى قارعة الطريق، تتصادم، أحياناً، سيارتان فيفيض المكان بصوت اصطدام الحديد والزمامير.

مشت ليلابي في الشوارع بخطوات كبيرة، بعيون نصف مغلقة، لتتجنب الغبار. حين وصلت إلى مركز المدينة كان رأسها يدور كما لو أن الدوار قد أصابها. الجموع تذهب وتجيء، تدور كأوراق ميتة. جماعات الرجال والنساء تتجمع ثم تتفرق، تتشكل من جديد كبرادة الحديد في حقل مغناطيسي. إلى أين يذهبون؟ ماذا يريدون؟ منذ زمن طويل، لم تر ليلابي هذا القدر من الوجوه، من العيون، من الأيدي، التي لم تدرك فهمها. الحركة البطيئة للجموع، على الرصيف، تأخذها، تدفعها إلى الأمام دون أن تدرك إلى أين تذهب. يعبر الناس بقربها، تشتم أنفاسهم، تشعر باحتكاك أيديهم. انحنى رجل إلى وجهها وتمتم بشيء ما، كان كمن يتكلم لغة مجهولة.

دون أن تنتبه، دخلت ليلابي إلى مجمع تجاري، مليء بالأضواء والضجيج. شعرت كما لو أن الريح تهب أيضاً في الداخل، في الممرات، على السلالم، تلف اليافطات. كانت مقابض الباب تفرغ شحنات كهربائية، قضبان النيون تتلألأ كبريق شاحب.

بحثت ليلابي عن مخرج المجمع التجاري. حين عبرت أمام الباب، صدمت شيئاً ما وتمتمت:

«عفواً سيدتي»

إلا أن ذلك لم يكن سوى مانيكان بلاستيكي، ترتدي قبعة مستديرة من نسيج قطني سميك أخضر. الذراعان متباعدتان تهتز قليلاً، وجه مدبب، لون شمعي شبيه بلون مديرة المدرسة. بسبب الاصطدام انزلق الشعر المستعار الأسود للمانيكان على عينها ذات الأهداب الشبيهة بقوائم الحشرات، وبدأت ليلابي تضحك وترتعش في آن.

شعرت بتعب شديد، ربما كان ذلك بسبب أنها لم تأكل منذ العشية، فدخلت إلى مقهى. جلست في عمق الصالة، حيث يوجد قليل من الظل. كان النادل واقفاً أمامها.

«أريد عجة»، قالت ليلابي.

نظر إليها النادل للحظة، كما لو أنه لم يفهم ثم صرخ باتجاه طاولة الخدمة:

«عجة للآنسة»...

ثم تابع النظر إليها.

أخذت ليلابي ورقة من جيب سترتها وحاولت الكتابة. أرادت كتابة رسالة طويلة، دون أن تعرف لمن ترسلها. أرادت في الوقت نفسه، الكتابة لأبيها، وللأخت لورانس، وللسيد فيليبي، وللفتى

ذي النظارة السوداء لتشكره على رسمه. إلا انها لم تستطع. لذلك، جعلكت الورقة وأخذت أخرى. وبدأت تكتب:

«سيدتي المديرة،

أرجو أن تعذري ابنتي لعدم استطاعتها العودة إلى المدرسة، حالياً، لأن حالتها الصحية تتطلب....»

توقفت. تتطلب ماذا؟ لم تستطع تخيل أي شيء، لتتابع رسالتها.

«عجة الآنسة»، صاح صوت النادل. وضع الصحن على الطاولة ناظراً إلى ليلابي بغرابة.

جعلكت ليلابي الورقة الثانية وبدأت تأكل العجة، دون أن ترفع رأسها. جعلها الطعام الساخن تشعر بالراحة، وبعد قليل ستنهض وتتابع المسير.

حين وصلت أمام بوابة المدرسة، ترددت للحظات.

دخلت. أحاطها لغط الأطفال دفعة واحدة. مباشرة، عرفت كل شجرة كستناء، كل شجرة دلب. كانت الزوابع تحرك أغصانها النحيفة، وكانت أوراقها تدور في الباحة. عرفت أيضاً كل قرميدة، كل مقعد بلاستيكي أزرق، كل النوافذ بزجاجها الخشن. ولكي تتجنب الأطفال الذين كانوا يركضون، جلست على مقعد في عمق الباحة. انتظرت. دون أن ينتبه إليها أحد.

خف الصخب. ودخل التلاميذ إلى الصفوف، وأغلقت الأبواب واحداً وراء الآخر. لم يبق إلا الأشجار التي تهزها الريح،

والغبار وأوراق الأشجار الميتة التي كانت ترقص على هيئة دائرة وسط الباحة.

شعرت ليلابي بالبرد. نهضت وبدأت البحث عن السيد فيليبي. فتحت أبواب المبنى المسبق الصنع، حيث توجد المخابر. في كل مرة، كانت تدهش بعبارة تبقى معلقة للحظة في الهواء، ثم تذهب حين تغلق الباب.

اجتازت ليلابي من جديد الباحة وقرعت الباب الزجاجي للبواب.

قالت: «أريد رؤية السيد فيليبي».

نظر إليها الرجل مندهشاً.

قال: «لم يصل بعد»، وفكر قليلاً. «أظن أن مديرة المدرسة تريدك. تعالي معي».

تبعته ليلابي طائعة. وقف أمام باب مطلي بالورنيش وقرع. ثم فتح الباب مشيراً لليلابي بالدخول.

من خلف مكتبها، نظرت المديرة إليها بعينين ثاقبتين.

«أدخلي وأجلسي. إني أنصت إليك».

جلست ليلابي على الكرسي ونظرت إلى المكتب المطلي بالشمع. كان الصمت ينذر بأنها تريد قول شيء ما.

قالت: «أريد رؤية السيد فيليبي.... لقد كتب لي رسالة».

قاطعتها المديرة. صوتها كان بارداً وقاسياً كنظرتها.

«أعلم بأنه كتب إليك. فعلت أنا ذلك أيضاً. ليس ذلك مهماً، المهم في الموضوع هو أنت. أين كنت؟ بالتأكيد هناك أشياء... مهمة ستروينها. إني أنصت إليك ياآنسة».

تجنبت ليلابي نظرتها.

«أمي...»، بدأت.

صرخت المديرة:

«والدتك ستعلم بكل هذا فيما بعد، وبالطبع، والدك أيضاً».

ثم أظهرت ورقة، عرفتها ليلابي بسرعة.

«وهذه الرسالة المزورة».....

لم تنكر ليلابي، بل أنها لم تندهش أبداً.

كررت المديرة: «إني أنصت إليك»، كان يبدو أن لا مبالاة ليلابي قد أخرجتها شيئاً فشيئاً عن طورها. ربما كان ذلك خطأ الريح التي كهربت كل شيء.

«أين كنت خلال كل هذا الوقت؟»

تكلمت ليلابي. تكلمت ببطء، باحثة عن كلماتها، لأنها، الآن، فقدت عادة الكلام، فيما كانت تتكلم، كانت ترى أمامها، في مكان المديرة، المنزل ذا الأعمدة البيضاء، الصخور، الاسم اليوناني الجميل الذي كان يلمع تحت الشمس. كانت تحاول رواية كل هذا للمديرة، البحر الأزرق بانعكاساته الشبيهة بالجواهر، الصخب العميق للأمواج، الأفق، بخطه الأسود، الريح المملحة، حيث

يحلق خطاف البحر . كانت المديرة تنصت ، وجهها امتلأ للحظة بتعابير الذهول الشديد . هكذا ، كانت تبدو كالمانيكان وبشعرها المستعار ، جهدت ليلابي كثيراً كيلا تبتسم . حين توقفت عن الكلام ، سادت عدة لحظات من الصمت . ثم تغير وجه المديرة ، كما لو أنها كانت تبحث عن صوتها . دهشت ليلابي لرنة صوتها . لم يعد نفس الصوت ، أصبح خفيضاً وأكثر نعومة .

قالت المديرة : «انصتي ياطفلتي» .

انحنت على مكتبها ، ناظرة إلى ليلابي . كانت يدها تحمل قلماً أسود محاطاً بخط مذهب .

«طفلتي ، أنا مستعدة لنسيان كل هذا . تستطعين العودة إلى المدرسة كالسابق . لكن يجب أن تقولي لي . . . . »

ترددت .

«أنت تفهمين أني أريد مصلحتك . لذلك يجب أن تقولي كل الحقيقة» .

لم ترد ليلابي . لم تفهم ما الذي تريد المديرة قوله .

«تستطعين التكلم دون خوف ، كل شيء سيبقى بيننا» .

بما أن ليلابي لم ترد ، قالت المديرة بسرعة ، بصوت منخفض :

«لديك صديق ، أليس كذلك؟»

أرادت ليلابي أن تحتج ، إلا أن المديرة منعتها من الكلام .

«الإنكار غير مفيد ، العديد من رفاقك رأوك مع فتى» .

قالت ليلابي: «هذا غير صحيح . .» لم تصرخ، إلا أن المديرة تصرفت كما لو أنها صرخت، وقالت بصوت عال:

«أريد معرفة اسمه» . . .

قالت ليلابي: «ليس لي صديق». فهمت سبب تغير وجه المديرة، لأنها كانت تكذب. شعرت بوجهها الذي أصبح كالحجر، بارداً ومصقولاً، نظرت مباشرة إلى عيني المديرة، ولأن المديرة كانت تكذب، لم تعد ليلابي تخافها.

اضطربت المديرة، وأدارت نظرتها. قالت في البداية، بصوت هادئ، حنون.

«يجب أن تقولي الحقيقة لي، من أجلك ياصغيرتي».

بعد ذلك، أصبح صوتها قاسياً خبيثاً.

«أريد معرفة اسم هذا الفتى» . . .

شعرت ليلابي بالغضب يكبر في داخلها. كان بارداً وثقيلاً جداً كالحجارة، تموضع في رئتيها، في حلقها، بدأ قلبها يخفق بسرعة، بالطريقة نفسها، حين رأت العبارات الفاحشة على جدران المنزل اليوناني.

«لا أعرف أي فتى، هذا غير صحيح، غير صحيح . .» صرخت، وأرادت النهوض كي تغادر. إلا أن المديرة أشارت لها بالبقاء.

«ابقي، ابقي، لا تغادري . .» صوتها كان من جديد أكثر

انخفاضاً، فيه قليل من الارتعاش. «أقول هذا من أجل مصلحتك، فقط من أجل مساعدتك، يجب أن تفهمي ذلك» . . .

تركت القلم الأسود الصغير ذا الطرف المذهب وشبكت يديها النحيفتين بعصبية كل منهما بالأخرى. عادت ليلابي للجلوس ولم تعد تتحرك. كانت بالكاد تتنفس، ووجهها أصبح أبيض، كقناع من الحجارة. شعرت بالضعف، ربما لأنها لم تأكل وتنم إلا قليلاً، في هذه الأيام على شاطئ البحر.

قالت المديرة: «واجبي أن أحميك ضد أخطار الحياة». «أنت لا تستطعين أن تدركي ذلك، لا زلت صغيرة. السيد فيليبي كلمني عنك بعبارات ثناء، أنت طالبة جيدة ولا أريد أن يهدم كل شيء بحادث عابر» . . . .

كانت ليلابي تنصت إلى صوتها، كما لو أنه يجيء من بعيد، من فوق جدار مشوه من حركة الريح. أرادت التكلم، لكنها لم تستطع أن تحرك شفتيها.

«أنت اجتزت فترة عصيبة منذ ما حدث لأمك، إقامتها في المشفى. أنت ترين أني أعرف كل هذا، مما يساعدني على فهمك، إلا أنه عليك أن تساعديني أيضاً، عليك أن تبذلي الجهد» . . .

«أريد رؤية . . . السيد فيليبي . . . »، قالت ليلابي في النهاية.

قالت المديرة: «سترينه فيما بعد، سترينه». «إلا أنه عليك أن تقولي الحقيقة، أين كنت؟»

«قلت لك، كنت أنظر إلى البحر، اختبئ بين الصخور وأنظر إلى البحر»

«مع من؟»

«قلت لك، إني كنت وحيدة، وحيدة» . .

«غير صحيح . . » .

صرخت المديرة، ثم تابعت مباشرة «إن لم تقولي مع من، سأكون مجبرة للكتابة لوالديك. لأبيك» . . .

بدأ قلب ليلابي يخفق بشدة.

«إن فعلت ذلك، فلن أعود أبداً إلى هنا»

شعرت بقوة كلماتها، فكررت ببطء دون أن تدير عينيها:

«إن فعلت ذلك، فلن أعود أبداً إلى هنا، ولا إلى أي مدرسة أخرى» .

صمتت المديرة للحظة طويلة، وامتلأت الصالة الكبرى بالصمت، كالريح الباردة. ثم نهضت المديرة. نظرت إلى الفتاة بانتباه.

في النهاية قالت: «يجب ألا توضعي في هذه الحال»، «أنت شاحبة، تعبة. سنتكلم في الأمر مرة أخرى» .

نظرت إلى ساعتها.

حصة السيد فيليبي ستبدأ خلال بضع دقائق. تستطعين الذهاب» .

نهضت ليلابي ببطء. ومشت نحو الباب الكبير. استدارت قبل الخروج، وقال:

«شكراً ياسيدتي»

كانت باحة المدرسة ممتلئة من جديد بالتلاميذ. كانت الريح تهز أغصان أشجار الدلب والكستناء، وأصوات الأطفال تصدر ضوضاء تشملها. اجتازت ليلابي الباحة ببطء، متجنبة جماعات التلاميذ والأطفال المتراكضين. أشارت لها بضع فتيات، من بعيد، دون أن يجرؤن على الاقتراب، أجابتهن ليلابي بابتسامة خفيفة. حين وصلت أمام البناء المسبق الصنع، رأت هيكل السيد فيليبي، بالقرب من العمود B كعادته كان مرتدياً طقمه الأزرق الرمادي، يدخن سيجارة، ناظراً إلى أمامه. توقفت ليلابي. لمحها الأستاذ، وجاء إلى لقائها مشيراً لها بيده إشارات مفرحة.

«وبعد؟ وبعد؟»، قال. هذا كل ما استطاع قوله.

«أريد أن أسألك . . .» بدأت ليلابي؟

«عن ماذا؟»

«عن البحر، عن الضوء، لدي الكثير من الأسئلة».

إلا أن ليلابي أدركت فجأة أنها نسيت أسئلتها. نظر السيد فيليبي مبتسماً.

«هل سافرت؟»

قالت ليلابي: «نعم . .».

«أكان سفراً ممتعاً»

. . . . «نعم . . كان ذلك ممتعاً» .

دق الجرس فوق الباحة ، في الأروقة .

قال السيد فيليبي : «أنا سعيد جداً . . . » . أطفأ سيجارته بكعبه .

قال : «ستروين لي كل شيء فيما بعد» . كان بريق أخاذ يلمع في عينيه تحت نظارته .

«لن تسافري بعد الآن ، أليس كذلك؟»

قالت ليلابي : «لا» .

قال السيد فيليبي : «جيد ، يجب الذهاب ، الآن ، إلى الدرس» . وكرر أيضاً : «أنا سعيد جداً . » استدار نحو الفتاة قبل أن يدخل إلى البناء المسبق الصنع .

«ستسألينني كل ما تريدينه ، بعد الدرس . إني أحب البحر كثيراً ، . . مثلك» .



(١) جنبة صفراء الزهر من فصيلة القرنيات الفراشية .

(٢) وردت الأغنية في النصف الأصلي بالأنكليزية .



الطـواف

أخذ هذا النص من مجموعة «الطواف وأفعال أخرى»

قررت الفتاتان الالتقاء هنا . . .

في المكان الذي يتـوسع فـيـه شـارع الحرية، مشكلاً سـاحـة صغيرة. . . .

قررتا اللقـاء في الواحدة، لأن دروس الاختزال تبدأ في الساعة الثانية، مما يتيح لهما الوقت الكافي. حتى وإن وصلتا متأخرتين، ولم يسمح لهـما بالدخول، فبأي شيء يمكن أن يؤثر عليهـما ذلك؟ هذا ما قالته تيتي، الفتاة الأكبر عمراً، ذات الشعر الأحمر. هزت مارتين كتفيها، كعادتها حين تكون موافقة وليست لديها الرغبة في الإفصاح عن ذلك. مارتين أصغر من تيتي بسنتين - أي أنها ستبلغ السابعـة عشرة بعد شهر - بالرغم من مظهرها الذي يوحي بأن لها العـمر ذاته. إلا أنها، كـما يقال، ينقصهـا شيء من الشـخصـية، وتحاول إخفاء خجلها تحت مظهر عابس، كأن تهز، مثلاً، الكتفين، من أجل أن تقول نعم أو لا .

على كل حال، لم تكن مارتين صاحبة الفكرة. ربما تيتي، لم تكن صاحبتهـا أيضاً، إلا أنها كانت الأولى التي تحدثت عنها. لم

تفاجئ مارتين، ولم تصرخ بصوت عال. فقط، رفعت الكتفين، بهذا النحو توافقت الفتاتان. رغم ذلك، جرت مناقشة صغيرة من أجل تحديد المكان. مارتين أرادت أن يكون ذلك خارج المدينة، عند الطواحين مثلاً، حيث لا يوجد الكثير من الناس، إلا أن تيتي رأت بأن يكون ذلك في وسط المدينة حيث يمر الناس، ألحت تيتي كثيراً، مما دعا مارتين في النهاية، إلى أن تهز كتفيها. في حقيقة الأمر، سواء أكان ذلك في وسط المدينة أو عند الطواحين، فإن المسألة كانت تبدو لمارتين مسألة حظ، لا غير. هذا ما كانت تفكر به، إلا أنها لم تجد قول ذلك لتيتي مناسباً.

لم تفكر مارتين في الموعد، أثناء طعام الغداء، مع أمها. وحين تذكرته، أدهشها بأنها شعرت، أن الأمر سيان عندها. لم يكن الأمر بالتأكيد مماثلاً لتيتي، فهي قد قلبت الحكاية على كل وجوهها، أياماً وأياماً، بالتأكيد، تكلمت عنها في الوقت الذي كانت فيه تجلس بجانب صديقها على المقعد، تأكل سندويشاً. كان هو الذي تكلم، للمرة الأولى، عن إعارة دراجته النارية لمارتين، لعدم ملكيتها واحدة منها، إلا أنه لم يكن بالإمكان معرفة رأيه الصريح في كل هذا. عيناه صغيرتان، ضيقتان، لا يمكن قراءة شيء فيهما، حتى ولو كان غاضباً أو ضجراً.

مع ذلك، حين وصلت إلى شارع الحرية، بالقرب من الساحة، شعرت مارتين فجأة بأن الرعب قد ملأ قلبها. شيء غريب، أن يكون القلب خائفاً، ينبض: «بوم.. بوم.. بوم..»، بقوة داخل الجسد، بعد ذلك تصبح الساقان رخوتين، كما لو أنها

ستسقط. لماذا هي خائفة؟ لا تعرف جيداً، رأسها باردة، وأفكارها لامبالية، مملة قليلاً، كما لو أن شخصاً آخر داخل جسدها قد جن. على أية حال، كانت تشد شفتيها، تتنفس بهدوء، لا يرى الآخرون ما في داخلها. تيتي وصديقها هنا، على الدراجة النارية. لم تكن مارتين تحب صديق تيتي، ولكي لا يقبلها، كانت لا تقترب منه. أما تيتي، فقد كانت شيئاً مختلفاً. هي ومارتين، صديقتان حقيقيتان، لاسيما منذ سنة، كل شيء تغير في مارتين منذ أن أصبح لها صديقة. الآن، صارت أقل خوفاً من الفتيان، وأصبح لديها شعور بأن لا شيء يمكن أن يصيبها مادام أن هناك صديقة. لم تكن تيتي جميلة، إلا أنها تعرف الضحك، لها عينان جميلتان، رماديتان - خضراوان، كان في شعرها الأحمر غرابة تناسبها. كانت تحمي مارتين دائماً من الفتيان، فجمال مارتين قد جلب لها المشاكل مع الفتيان، كانت تيتي تساعدها في مواجهة هذا الأمر، أحياناً بالركل واللكم.

ربما، كان صديق تيتي هو صاحب الفكرة الأول. إلا أن التأكد من ذلك فيه صعوبة، منذ أمد طويل، كان الجميع، أكثر أو أقل، لديه رغبة في المحاولة، إلا أن الفتيان دائماً يتكلمون كثيراً، دون أن يفعلوا شيئاً كبيراً. لذلك قالت تيتي بأننا سنبرهن لهم بأن الشجاعة لا تخوننا، لم يعد حينها لمارتين أي داع للخوف. لأجل هذا، كانت مارتين تشعر قلبها يخفق بقوة في قفصها الصدري. لأن ذلك كان امتحاناً، اختباراً. لم تكن بعد قد فكرت في الأمر، لكن، لحظة رؤيتها لتيتي والفتى جالسين على الدراجة النارية، في زاوية الشارع، تحت الشمس، يدخنان، أدركت بأن العالم ينتظر شيئاً ما، بأنه يجب

أن يحدث شيء ما. بالرغم من ذلك، كان شارع الحرية هادئاً، لا يوجد فيه أناس كثر. والحمام يمشي تحت الشمس على حافة الرصيف وفي قناة ماء المطر، يحرك رؤوسه بشكل آلي. لكن. . . كما لو أن هناك خواء كثيفاً يأتي من كل الجهات؛ خواء يجلب الغم، يصرصر داخل الآذان، يعلق الوعيد في أعلى الأبنية ذات الطوابق السبع، على الشرفات، وراء كل نافذة، أو داخل كل سيارة متوقفة.

ظلت مارتين بلا حراك، تشعر ببرودة الخواء في داخلها، في قلبها، راحتاها مبللتان بقليل من العرق. فيما تيتي والفتى ينظران إليها بعيون متغضنة، من شدة ضوء الشمس. يكلمانها دون أن تنصت إليهما. لابد أنها كانت شاحبة، عيناها ثابتتان، وشفتاها ترتجفان. فجأة، لم يعد هناك شيء، الآن هي التي تتكلم، صوت أجش، دون أن تدري جيداً ما تقول.

«هيا أنذهب؟ أنذهب الآن؟»

نزل الفتى عن دراجته. قبل تيتي في فمها، ثم اقترب من مارتين التي أبعدته بعنف.

«هيا، اتركها»

أدارت تيتي دراجتها بفظاظة، ووقفت إلى جانب مارتين. ثم انطلقتا مسرعتين، في ذات اللحظة، سارتا للحظة على الرصيف، ثم نزلتا معاً إلى قارعة الطريق، وبقيتا جنباً إلى جنب في الجانب المخصص للباصات.

الآن، وهي تقود دراجتها، لم يعد للخوف مكان داخل جسدها. ربما اهتزازات الدراجة، رائحة وحرارة الغاز ملأت

تجاويفها. تحب مارتين قيادة الدراجات النارية، لاسيما حين تكون الشمس ساطعة، وحين لا يكون الهواء بارداً، كمثل هذا اليوم. تحب الإندساس بين السيارات، الرأس مائل إلى الجنب قليلاً كيلا تستنشق الريح... كانت تيتي محظوظة، فقد أعارها أخوها دراجته، لم تكن تماماً إعارة، إنه ينتظر أن تدفع له تيتي قليلاً من النقود. لم يكن شقيق تيتي يشبه الفتيان الآخرين. إنه شخص يعرف ماذا يريد، لا يضيع الوقت في رواية الأكاذيب، كالآخرين، فقط من أجل أن يظهروا مزاياهم. لا تفكر مارتين حقاً فيه، لكن فقط، بضع ثوان، كما لو أنها كانت معه، على دراجته «غزي» guzzi، وهما ينقضان بسرعة على الطريق الخاوي. حين تكون يداها ممسكة بجسد فتى، تشعر بقوة الريح على وجهها، وبدوار المنعطفات حين تتأرجح الأرض، كطائرة.

سارت الفتاتان بمحاذاة الرصيف، نحو الغرب. الشمس مشتعلة في أوجها، والهواء الندي لم يكن يستطيع تبديد النعاس الذي يثقل إسفلت الشارع وإسمنت الأرصفة. المحلات مغلقة، والستائر الحديدية مسدلة، مما يزيد انطباع الخدر. بالرغم من ضجة الدراجات، كان صخب أجهزة التلفزيون التي تتحدث وحدها في الطوابق الأولى للأبنية يصل، أحياناً، إلى مارتين أثناء مرورها. كان هناك صوت رجل، وموسيقا ترن بغرابة في نعاس الشارع، كما لو أنها كانت ترن في مغارة.

تسير تيتي، الآن، في المقدمة، منتصبة على مقعد دراجتها. شعرها الأحمر يرفرف مع الريح، وسترة الطيار التي ترتديها، تنتفخ

على ظهرها. مارتين تسير في الخلف، في ذات المسار، حين تمران أمام واجهات المحلات، كانت تلمح بطرف عينها، خياليهما اللذين ينزلقان، كأخيلة الفرسان في أفلام الكابوي.

فجأة، عاد الخوف، من جديد، إلى داخل مارتين، وأصبح حلقها جافاً. أدركت أن الشارع لم يكن حقاً خالياً، وأن كل شيء كما لو أنه قد هيئ له من قبل. شعرت بأنهما تقتربان من الذي سيحدث دون أن تستطيعا العودة، يتصاعد القلق بقوة بحيث أن كل شيء يدور أمام عيني مارتين، كما لو أنها ستلاقي شراً ما.

أرادت أن تتوقف، أن تتمدد، في أي مكان، على الأرض، في زاوية جدار، بركبتين مثنيتين على بطنها، كي تسندا ضربات قلبها، التي تنشر الاهتزازات في جسدها. تباطأت دراجتها، تعرجت قليلاً على قارعة الطريق. أمامها في البعيد، كانت تيتي تتابع سيرها دون أن تلتفت إلى الوراء، منتصبة على مقعد دراجتها، وضوء الشمس يلمع على شعرها الأحمر.

المرعب في الأمر، أن الناس ينتظرون. مارتين لا تعلم أين هم، إلا أنها تعلم بأنهم هنا، في كل مكان، بمحاذاة الشارع، وعيونهم عديمة الشفقة تتبع موكب الدراجتين بمحاذاة الرصيف. ماذا ينتظرون إذن؟ ماذا يريدون؟ أيكونون على أسطحة الأبنية البيضاء، على الشرفات، أو مختبئين خلف ستائر النوافذ؟ أيكونون، بعيداً في داخل سياراتهم، يراقبون بمناظيرهم؟ فيما مارتين كانت تفكر في ذلك، لعدة ثوان، كانت آلتها تتباطأ متعرجة على قارعة الطريق. إلا أنه بعد لحظة، ستلتفت تيتي خلفها، وتعود على عقبيها، وتقول:

- «ما الأمر . . . ؟ ما الأمر . . . ؟ ماذا حدث لك . . ؟ لماذا تقفين . . ؟»

أغلقت عينيها، متلذذة للحظات بالعتمة الحمراء هاربة من هذا اليوم القاسي. حين نظرت من جديد إلى الشارع، وجدته أكثر خلواً وأكثر بياضاً، بنهره الإسفلتي الأسود الكبير، الذي يذوب تحت أشعة الشمس. شدت على شفتيها، كما فعلت تواً، كي لا يهرب خوفها. أما الآخرون، هؤلاء الذين ينظرون، المترصدون خلف أبواب شبابيكهم، خلف سياراتهم، تكرههم بشدة هذا الشعور جعل شفتيها ترتجفان وجعل قلبها يفقد صوابه. كل هذه المشاعر تروح وتجيء سريعاً، مما أشعرها بأن هناك نشوة ما تسيطر عليها، كما لو أنها شربت ودخنت كثيراً. كانت تشاهد، أيضاً بطرف عينها، وجوه هؤلاء الذين ينتظرون، الذين يراقبون، القذرون المترصدون خلف ستائرهم، خلف سياراتهم. رجال بوجوه غليظة، بعيون غائرة، رجال متورمون، يبتسمون بضبابية، وفي نظرتهم يلمع بريق الرغبة، بريق الخبث. نساء، نساء بتقاطيع خشنة، ينظرن إليها برغبة واحتقار، مع خشية أيضاً، كذلك وجوه فتيات دروس الاختزال، وجوه الفتيان التي تلتفت، التي تقترب، التي تكشف عن تصنعها. إنهم هنا تشعر مارتين بوجودهم خلف زجاج المقاهي، في زوايا الشارع، الذي جعلته الشمس مهجوراً.

عندما انطلقت من جديد، رأت تيتي متوقفة قبل التقاطع التالي، في مكان موقف الباص. مستديرة إلى الخلف على مقعد دراجتها، شعرها الأحمر منسدل على وجهها. كانت شاحبة، كانت

أيضاً مملوءة بالخوف، مما جعلها تشعر بعقدة في حلقها. بالتأكيد، الشمس هي مصدر الخوف، كذلك السماء العارية الخالية من الغيوم، فوق الطبقة السابعة للأبنية الجديدة.

أوقفت مارتين دراجتها إلى جانب تيتي! وبقيتا، كلتاهما، ساكتين، اليد على مقبض الوقود، دون أن تنبس إحداهما بكلمة. لم يتحدثا معاً، لم تحدق أحداهما بالأخرى، إلا أنهما كانتا تعرفان أن الطواف سيبدأ الآن، يخفق قلباهما بشدة، هذه المرة لم يكن القلق هو الدافع، وإنما نفاذ الصبر.

كان شارع الحرية بهذه الشمس المتوهجة التي تسحق الظلال خاوياً، الأرصفة خالية، الأبنية ذات النوافذ الشبيهة بالعيون المطفأة، فيما كانت السيارات تنزلق بصمت. كما يمكن أن يكون كل شيء هادئاً جداً، بعيداً جداً. . . ؟ فكرت مارتين بمحركات الدراجات التي تنطلق بصوت الرعد، ورأت لحظة سينكشف فيها الشارع، مرتمياً تحت العجلات التي تفترسه، فيما ستنفجر النوافذ إلى آلاف الشظايا التي تفرش الشارع بقطع الزجاج الصغيرة.

كل ذلك كان بسببها، فقط بسببها: السيدة ذات الطقم الأزرق التي تنتظر الباص، دون أن تنظر إلى الفتاتين، كانت تبدو كما لو أنها تنام. وجهها أحمر من أثر الشمس التي سارت تحتها، تحت سترة طقمها، يلتصق قميصها بجلدها، عيناها تغوصان في محجريها، كانت لا ترى شيئاً، بالكاد، تمد نظرها خلسة، إلى طرف الشارع، من الجهة التي سيأتي منها الباص. في طرف ذراعها اليمنى، تتهادى حقيبة يدها، الجلدية السوداء، ذات القفل المعدني

المذهب اللامع. حذاؤها أسود اللون أيضاً، مقوس تحت ثقل جسدها، ذو داخل مهترئ.

نظرت مارتين إلى السيدة ذات الرداء الأزرق بإصرار يصيب رأسها بالدوار. إلا أن عينيها الصغيرتين كانتا مختبئتين بظل تقوس حاجبيها، ومارتين لم تكن تستطيع رؤية نظرتها. لماذا كانت تريد التقاط نظرتها؟ لا تعلم مارتين ما في داخلها، ما الذي يجعلها مضطربة، ما الذي يقلقها ويثيرها في الوقت نفسه. أيكون ذلك بسبب الضوء المبهر القاسي، الذي يثقل وجه هذه المرأة، ويسبب تعرق جلدها، ويجعل الأشعة الحادة تلمع على القفل المذهب لحقيبة يدها؟

فجأة أسرعت مارتين وقفزت دراجتها على الطريق. وعلى الفور شعرت بالهواء يضرب وجهها، واختفت حيرتها. كانت تقود بسرعة متبوعة بتيتي. تتقدم الدراجتان وهما تفرقعان في الطريق الخاوي، تتباعدان، السيدة ذات الرداء الأزرق تتبعهما للحظة بنظرها، وترى الدراجتين تدوران إلى جهة اليمين بعد شارعين. ثم تنطفئ فجأة الضجة الحادة للدراجتين.

بعد عدة منازل، ليس بعيداً عن محطة القطار، تنطلق الشاحنة الزرقاء ببطء، محملة بالأثاث وعلب الكرتون. شاحنة قديمة، مرتفعة عن عجلاتها. مدهونة بدهان أزرق رديء، أنهكها - منذ مليون من الكيلو مترات - السائقون المتتابعون، بضربات الكابح وبالطرق على علبة السرعة. كان الطريق الضيق أمام الشاحنة الزرقاء مزدحماً بالسيارات المتوقفة. أثناء مرورها أمام عدة مقاهي، انحنى

السائق، إلا أنه لم ير إلا ظل أعماق الصالات. كان تعباً وجائعاً، أو ربما كانت الشمس القاسية تنعكس على إسفلت الطريق، يحرك عينيه مقطباً وجهه. تسير الشاحنة بسرعة على طول الشارع الضيق، وهدير محركها يملأ الطريق. على ظهرها، في الخلف، يصرصر الأثاث وتحتك الأغراض داخل العلب فيما بينها. الرائحة الثقيلة تملأ قمرة القيادة، تتدفق إلى الخارج بشكل دخان أزرق تسحبه الشاحنة على طول الشارع. تتمايل الشاحنة وتسير على وقع اهتزازها، تتقدم إلى الأمام كحيوان غاضب. يطير الحمام أمام مقدمتها. تجتاز شارعاً، شارعاً آخر، بدون أن تبطئ، ربما، أعطتها المليون كيلو متر التي سارتها عبر شوارع المدينة الحق في العبور...

ثاني، ثالث، ثاني. تصرصر السرعات، يطقطق المحرك مخشخشاً. على واجهات المحلات، يعبر الخيال الأزرق بسرعة، شبيهاً بحيوان ساخط.

هناك في طرف الرصيف، السيدة ذات الرداء الأزرق لا زالت تنتظر. رأت ساعتها للمرة الثالثة، إلا أن العقارب بدت كما لو أنها لا تتحرك في هذا الوقت اللعين: الواحدة وخمس وعشرون دقيقة. بماذا تفكر؟ وجهها الأحمر هادئ، ضوء الشمس، بالكاد، يظهر ظلال محجريها، أنفها وذقنها. مضاءة جيداً من الأمام، كما لو أنها تمثال من الجص، ساكنة على طرف الرصيف. كانت الحياة تبدو فقط، على جلد حقيبة يدها الأسود وحذائها اللامع. ظلها مكوم على قدميها كجلد مسلوخ، مرمي إلى الخلف قليلاً. ربما لا تفكر بشيء، ولا حتى بالباص رقم سبعة الذي ينبغي - أن يأتي، الذي

يسير بمحاذاة الأرصفة الخالية، الذي يتوقف في مكان ما لطفلين يذهبان إلى المدرسة الثانوية ثم لعجوز ببدلة رمادية. إلا أن تفكيرها قد توقف، ينتظر مثلها بصمت. كانت أحياناً تنظر، فقط، إلى دراجة نارية تعبر صاخبة، وأحياناً، إلى سيارة تنزلق على الإسفلت، في هذا الصخب الحار لشارع رطب.

كل هذا يسير ببطء، ومع ذلك، هناك بريق يضرب العالم، إيماءات تلمع عبر المدينة، أضواء مجنونة. يمكن القول إن كل شيء هادئ جداً، على حافة النعاس، مع ذلك، هناك ضوضاء، الصرخات المكبوتة، هذا العنف.

تسير مارتين أمام تيتي، تنقض على الشوارع الخالية، تتمايل بدراجتها عند المنعطفات، بحيث أن ملامس الدواسات تلامس الأرض مرسلة حزمة من الشرار. الهواء الحار يملأ العيون بالدموع، يصطدم بفمها وبمنخريها، مما أجبرها على إدارة الرأس قليلاً كي تستطيع التنفس. تتبعها تيتي على بعد عدة أمتار منها، شعرها الأحمر تطيره الريح، هي مليئة بالنشوة أيضاً، من السرعة ورائحة الوقود. يأخذهم الطواف بعيداً، عبر المدينة يقودهم ببطء، شارعاً وراء شارع، نحو موقف الباص، حيث تنتظر السيدة ذات الحقيبة السوداء. الحركة الدائرية تصيبهم بالثمالة أيضاً، الحركة التي تواجه خواء الشوارع، تواجه صمت الأبنية البيضاء، تواجه الضوء القاسي الذي يخطفهم. طواف الدراجات النارية يستمر على الأرض غير مبال، يحفر نداء، تسير الشاحنة والحافلة الخضراء عبر الشوارع، من أجل ذلك أيضاً، من أجل أن يردم هذا الدوار من أجل أن ينتهي الطواف.

في الأبنية الجديدة، في الجانب الآخر من النوافذ الشبيهة بعيون مطفأة، الناس المجهولون، بالكاد، يعيشون، مختبئين وراء ستائرهم، عميان من الشاشات المرصعة لأجهزة تلفزيوناتهم. لا يرون الضوء الحاد، ولا السماء، لا يسمعون النداء الحاد للدراجات النارية التي تصدر صرخة. حتى أنهم ربما يجهلون أن أولادهم هم الذين يطوفون هذا الطواف، بناتهم ذوات الوجه الوديع الطفولي، ذوات الشعر المتشابك بالريح.

في زنانين شققهم المغلقة، لا يعرف الراشدون ما يجري في الخارج، لا يريدون معرفة ذلك الذي يدور في الشوارع الخاوية، على الدراجات المجنونة. كيف يستطيعون معرفة ذلك؟ إنهم سجناء الجبصين والحجارة، الإسمنت غزا لحومهم، سد شرايينهم. على شاشات تلفزيونهم المكفهرة، وجوه، مناظر طبيعية، شخصيات. صور تضاء، تنطفئ، تذبذب البريق الأزرق على وجوههم الساكنة. في الخارج تحت ضوء الشمس، ليس هناك مكان إلا للأحلام.

إذن، طواف الدراجات النارية سينتهي هنا، في شارع الحرية الكبير. الآن، ستسير الدراجتان بخط مستقيم، تاركتين، بسرعة، خلفهما كل هذه البنايات، هذه الأشجار، هذه الساحات، هذه التقاطعات. السيدة ذات الرداء الأزرق وحيدة، على طرف الرصيف، كما لو أنها كانت تنام. تسير الدراجات قريباً جداً من الرصيف، في قناة ماء المطر. القلب لم يعد مضطرباً. بالعكس، أصبح هادئاً، والساقان لم تعودا ضعفتين، واليدان لم تعودا رطبتين. تسير الدراجتان بذات التناغم، الواحدة بجانب الأخرى،

وصخبهما في تآلف، صخب يستطيع هدم الجسور وجدران المنازل. كان هناك أناس في الشارع متربصين في سياراتهم المتوقفة، مختبئين خلف ستائر غرفهم. يستطيعون المراقبة بعيونهم الضيقة، لكن بأي شيء يمكن أن يؤثر ذلك؟

بدون تباطؤ، صعدت الدراجة الأولى إلى الرصيف، اقتربت من السيدة ذات الرداء الأزرق. عندما حدث هذا، تماماً قبل أن تقع، حدقت السيدة في مارتين التي كانت تسير أمامها في قناة ماء المطر، حدقت فيها أخيراً، عيناها الكبيرتان المفتوحتان، تظهران لون سوسنها الذي يعطي بريق نظرتها. غير أن هذا لم يدم إلا جزءاً من مائة جزء من الثانية، بعد ذلك كانت هذه الصرخة التي رنت في الشارع الخالي، صرخة الألم والدهشة، فيما الدراجتان تهربان نحو التقاطع.

من جديد، تعود الريح الحارة، بصفيرها، ويقفز القلب في القفص الصدري، ويد مارتين، المشدودة على حقيبة اليد السوداء، مليء بالعرق. الخواء يملأ داخلها، مادام الطواف قد انتهى، النشوة لم يعد لها أن تعود. بعيد إلى الأمام، تهرب تيتي، فيما شعرها الأحمر يطير في الريح. دراجتها كانت أسرع، فاجتازت التقاطع، مبتعدة. إلا أنه في اللحظة التي اجتازت فيها الدراجة الثانية التقاطع، خرجت من الشارع شاحنة النقل الزرقاء، كما لو أنها حيوان، نهش غطاؤها المعدني الدراجة وسحقها على الأرض، فيما علا صخب مروع للمعدن والزجاج. توقفت العجلات مفرملة نابحة...

عاد الصمت إلى الشارع، وسط التقاطع. على قارعة الطريق، تمدد جسد مارتين خلف الشاحنة الزرقاء، ملتفاً حول نفسه كقطعة غسيل. لم يكن هناك ألم، ليس بعد، فيما كانت تنظر إلى السماء، بعينين كبيرتين مفتوحتين، وبفم يرتجف قليلاً. إلا أن خواء شديداً لا يطاق، طغى عليها، فيما كان دمها يسيل بتعرج أسود من ساقيها المسحوقتين. على قارعة الطريق، ليس بعيداً من ذراعيها، كانت الحقيبة السوداء، كما لو أنها قد نسيت بسذاجة على الأرض، وقفلها المعدني المذهب يرسل إلى العيون بريقاً قاتلاً.



أيها اللص
أي حياة حياتك؟

أخذ هذا النص من مجموعة «الطواف وأفعال أخرى»

كيف بدأت الحكاية . . . . . . ؟

لا أعلم، لم أعد أعلم، منذ زمن طويل جداً، الآن، لم أعد أذكر الوقت، الحياة هي التي تقودني، ولدت في البرتغال، في إريسيرا، التي كانت في ذلك الوقت قرية صيادين صغيرة بيضاء، على شاطئ البحر، لا تبعد عن لشبونة. فيما بعد، اضطر والدي للمغادرة نتيجة أسباب سياسية، فأقمنا، مع أمي وعمتي، في فرنسا. منذ ذلك الوقت، لم أر جدي. حدث ذلك بعد الحرب، أظن أنه قد مات في ذلك الوقت. إلا أني أذكره جيداً، كان صياداً، يروي الحكايات لي، لكني الآن، لم أعد أتكلم البرتغالية. بعد ذلك، عملت كمتدرب بناء مع والدي. إلا أنه مات، مما أجبر أمي على العمل. أما أنا فبدأت العمل في شركة لتجديد المنازل القديمة،

مما يسر أموري كثيراً. في ذلك الوقت كنت أعيش كما يعيش كل الناس، لدي عمل وزوجة وأصدقاء، لم يكن الغد يشغلني، كذلك لم تكن الأمراض والحوادث في بالي، أعمل كثيراً مقابل نقود قليلة، دون أن أدرك أني كنت محظوظاً.

بعد ذلك تخصصت في الكهرباء، أهيئ الدارات الكهربائية، الأجهزة المنزلية والإضاءة والتوصيلات للعمل. كان عملاً جيداً، يرضيني تماماً. يبدو ذلك الآن بعيداً، بحيث أني أتساءل، أحياناً، عما إذا كان كل ذلك حلماً، حين كانت الحياة وديعة، تسير على ما يرام، لحظة أعود إلى المنزل، في الساعة السابعة مساء، أفتح الباب، فأشعر بدفء المنزل، أسمع صراخ الأطفال، صوت زوجتي التي تأتي نحوي كي تعانقني، استلقي على السرير، انظر إلى السقف، متمعناً بقع الظل التي ينشرها الضوء الخافت، لم أكن أفكر في أي شيء، المستقبل لم يكن موجوداً، كذلك الماضي. لم أدرك أني كُنت محظوظاً.

الآن. . . . . . . ؟

الآن. . . كل شيء تغير. المرعب في الأمر، أن كل شيء حدث فجأة، حين فقدت عملي، نتيجة إفلاس الشركة. قيل إن رب العمل، كان مديناً حتى العنق، كان كل شيء مرهوناً. هكذا، ساءت الحالة دون أي إنذار، كان لنا في ذمته راتب ثلاثة شهور، في نفس الوقت، قبض رب العمل عربوناً على أحد الأعمال. الصحف

تكلمت عن هذا الموضوع . إلا أننا لم نشاهده مرة أخرى ، لا هو ولا النقود . هكذا أصبح الجميع في حالة معدمة ، كان ذلك يشبه حفرة ، وقع الجميع فيها . لا أدري ماذا حدث للآخرين ، أظن أنهم ذهبوا إلى مكان آخر ، كانوا يعرفون أناساً باستطاعتهم تقديم المساعدة لهم . في البداية ، ظننت أن الأمور ستعود إلى طبيعتها ، ظننت بأني سأجد ، بسهولة ، عملاً آخر ، إلا أن ذلك لم يحدث ، لأن أرباب العمل ، يستخدمون عمالاً ليسوا متزوجين ، أو أشخاصاً أجانب ، لسهولة التخلص منهم ، إذا أرادوا ذلك . أما بالنسبة لتخصصي في الكهرباء ، فلم أكن أحمل دبلوماً فيه ، وبالتالي ، لم يقدم لي أحد عملاً في هذا المجال . مرت الشهور دون أن أجد شيئاً ، كان من الصعب ، إيجاد الطعام ، دفع تكاليف المدرسة لأبنائي ، أما زوجتي ، فلم تكن لها المقدرة على العمل ، بسبب مشاكلها الصحية ، حتى أنني لم أكن أجد النقود لشراء الدواء . لكنّ صديقاً لي ، كان قد تزوج حديثاً ، أعارني عمله ، فذهبت إلى بلجيكا ، وعملت ثلاثة شهور في الأفران العالية ، كان ذلك قاسياً ، خصوصاً ، أني اضطررت للعيش وحيداً في الفندق ، إلا أني حصلت على مبلغ جيد من النقود ، اشتريت به سيارة ، سيارة شحن صغيرة من نوع بيجو ، لازلت أملكها للآن . في ذلك الوقت ، فكرت أنني ربما أستطيع بهذه الشاحنة العمل في النقل لصالح الورش وفي إحضار الخضار إلى السوق . إلا أن الأيام التي أتت ، كانت أقسى ، لم يبق لدي شيء ،

لدرجة أنني لم أعد أحصل على الإعانات الإجتماعية. كادت عائلتي أن تموت من الجوع، زوجتي، أطفالي. في هذه الظروف بدأت. في البداية، ظننت أن ذلك سيكون مؤقتاً، لفترة قصيرة من انتظار، ريثما أحصل على قليل من المال. والآن، أعيش على هذا المنوال، منذ ثلاث سنوات، أدرك أن ذلك لن يتغير. لولا زوجتي وأطفالي، ربما استطعت السفر، إلى كندا، استراليا، إلى أي مكان، حين تغير المكان، تغير حياتك . . .

هل يعرفون. . . . . ؟

أطفالي . . ؟ لا، لا يعلمون شيئاً، إنهم صغار، لا يمكن أن أقول لهم أن أباهم قد أصبح سارقاً. في البداية، لم أود أن أعلم زوجتي، أخبرتها أني، في النهاية، وجدت وظيفة حارس ليلي في الورش، إلا أنها كانت ترى كل الذي أحضره معي، أجهزة التلفزيون، الراديو والمسجلات، الأجهزة المنزلية، أو التحف والفضيات، لأني كنت أودع كل هذا في الكراج. انتهت إلى الشك بشيء ما، لم تنبس بأي كلمة، إلا أني شعرت بشكها. ماذا تستطيع أن تقول؟ في الحالة التي وصلنا إليها، لم يبق لنا شيء نضيعه. إن لم أفعل ذلك، كنا سنتسول في الشارع. . . . لم تقل شيئاً، إلا أنه ذات يوم دخلت إلى الكراج، فيما كنت أنزل حمولة السيارة، بانتظار المشتري. كنت قد وجدت، مباشرة، مشترياً جيداً، أنت تفهم، هو يربح كثيراً دون تحمل المخاطر. لديه، في المدينة، متجر للأجهزة المنزلية والكهربائية، ومتجر آخر للتحف، في مكان آخر، أظن أنه

يقع في الضواحي الباريسية. يشتري كل شيء بعشر قيمته. يدفع بسخاء للتحف، إلا أنه لا يأخذ أي شيء، كان يقول، بأن في ذلك خطورة. ذات يوم رفض ساعة حائط، ساعة حائط قديمة، لأنه لا يوجد منها سوى ثلاث أو أربع في العالم، مما يجعله يخاطر في الكشف عن نشاطه. فأعطيتها لزوجتي، إلا أنها لم ترضها، أظن أنها رمتها بعد أيام قليلة. ربما كانت تخيفها. آه. . . نعم، في ذلك اليوم، بينما كنت أفرغ الشاحنة، جاءت، نظرت إلي، ابتسمت قليلاً، لكنني شعرت بالحزن في أعماقها، قالت لي فقط، أذكر ذلك جيداً، «ألا يوجد خطر؟» شعرت بالعار، طلبت منها المغادرة لأن المشتري سيصل بعد قليل، ولا أريد أن يراها. لا. . لا أريد أن يعلم أطفالي بذلك، أنهم صغار جداً. يظنون أني أعمل، كما كنت من قبل. الآن، أقول لهم بأني أعمل في الليل، ولهذا يجب أن أغادر في الليل، وأن أنام جزءاً من النهار.

هل تحب هذه الحياة. . . . . ؟

لا، في البداية، لم أكن أحب هذا أبداً، لكنني الآن، ماذا أستطيع أن أفعل؟

هل تخرج في كل الليالي؟

هذا يعتمد على الأمكنة، هناك أحياء لا يوجد فيها أحد خلال الصيف، وأخرى خلال الشتاء. أحياناً، أبقى دون خروج مدة طويلة، يجب أن أنتظر، لأني أعلم أني أخاطر بنفسي. إلا أنه،

يصـدف، أحيـاناً، بأننا بحاجـة إلى نقـود في المنزل، من أجل شـراء الملابس أو الأدوية. أو من أجل أن أدفع أجــرة المنزل وفـــاتورة الكهرباء. في هذه الحالة علي أن أتصرف. فأبحث عن الأموات.

الأموات.....؟

نعم، أنت تعرف، حين تقرأ الصحيفة، وترى أحدهم ميتاً، غنياً، ستعرف أنه في يوم الدفن تستطيع زيارة المنزل.

أعادة تتصرف بهذه الطريقة.....؟

لا توجـد قـاعـدة عـامـة، مـرات لا أعـمـل إلا في الليل، هذا يحـدث، حين أكـون في أحـيـاء بعـيـدة، لأنـي أدرك بأني سـأعـمل بهدوء. أحيـاناً، أستطيع أن أفعل ذلك في النهـار، نحـو السـاعـة الواحـدة بعد الظهر. عـادة، لا أفضل النهار، أنتظر الليل، الفجر، أعتقد أنه ما بين السـاعـة الثالثة والرابعة، هو أنسب وقت، لأنه لا يوجد أحد في الشوارع، حتى رجال الشرطة ينامون في هذه الساعة. إلا أني لا أدخل أبداً منزلاً فيه أحد.

كيف تعرف فيما إذا كان هناك أحد......؟

بإمكانك أن تعرف ذلك بسهولة، حين تتعود على ذلك. الغبار أمام الباب، أو أوراق الشجر اليابسة، أو الصحف التي تملأ علبة الرسائل....

هل تدخل من الباب....؟

عندما يكون ذلك سهلاً، نعم، أكسر القفل، أو استخدم مفتاحاً مزيفاً. إن لم يكن ذلك بالإمكان، أحاول المرور عبر نافذة ما. أكسر زجاجها وأعبر. ألبس دائماً قفازين، كي لا أترك أثراً، ومن أجل أن أتفادى الجروح.

وأجهزة الإنذار؟

إن كانت معقدة، أنسى الأمر. إلا أنه عادة، تكون سهلة، تراها من أول نظرة، وما عليك إلا أن تقطع الأسلاك.

أي أشياء تفضل حملها؟

حين تدخل، بهذه الطريقة، إلى منزل لا تعرفه، لا تعرف ماذا ستجد في داخله. فقط، عليك أن تنتهي بسرعة، في الحالة التي يكشف فيها أحدهم ما تفعله. عليك أن تأخذ الأشياء التي تباع دون مشاكل، أجهزة التلفزيون والستريو، الأجهزة المنزلية، أو الفضيات والتحف شريطة أن لا تكون مربكة، اللوحات الفنية، المزهريات، التماثيل.

والمجوهرات؟

لا، ليس غالباً. عندما يترك الناس منازلهم، لا يتركون خلفهم مجوهراتهم. تستطيع أن تأخذ، أيضاً زجاجات النبيذ، إنها تباع جيداً. ومن ثم، أن الناس لا ينتبهون إلى أقبيتهم، ولا يضعون لها أقفال أمان، لا يرقبون جيداً الأشياء التي تجري فيها. بعد ذلك،

يجب تحميل كل شيء بسرعة، ثم المغادرة. لحسن الحظ، لدي سيارة، بدونها لا أستطيع أن أفعل هذا. أو علي أن أكون عضواً في عصابة، أن أصبح لصاً محترفاً. وهذا لا يرضيني، لأني أعتقد أن دافعهم في ذلك المتعة، أكثر من الحاجة، يريدون أن يغتنوا، أن يبحثوا عن غنائم أكثر، أن يقوموا بضربة كبيرة، بينما أنا، أفعل ذلك من أجل العيش، كي تجد زوجتي وأطفالي شيئاً يأكلونه، ويلبسونه، من أجل أن يحصل أطفالي على تربية جيدة، ومهنة حقيقية.

إذا وجدت عملاً في الغد، سأتوقف في الحال عن السرقة، سأستطيع، من جديد، أن أعود إلى المنزل مرتاحاً، في المساء، أتمدد على السرير قبل العشاء، أرقب بقع الظل على السقف، دون أن أفكر بشيء، دون أن أفكر بالمستقبل، دون أن أكون خائفاً من شيء....

الآن، أشعر أن هناك خواء في حياتي، لا شيء خلف كل هذا، كما لو أنه كان ديكوراً. المنازل، الناس، السيارات، لدي انطباع بأن كل شيء مزور ومزيف، أنه في أحد الأيام سيقال لي بأن كل هذا كان كوميدياً لا تنتمي لأحد.

من أجل أن لا أفكر بكل هذا أخرج، بعد الظهر، إلى الشارع، وأبدأ المشي دون أن أحدد اتجاه، أمشي وأمشي تحت الشمس أو تحت المطر، وأشعر كأني غريب وصل لتوه بالقطار، ولا يعرف أحداً في هذه المدينة.

وأصدقاؤك؟

آه. . . . . أنت تعلم، حين تقع في المشاكل، وحين يعلمون أنك فقدت العمل، وأنه لم يعد لديك نقود، سيكونون، في البداية، طيبون معك، إلا أنه فيما بعد، سيخشون أن تأتي إليهم طالباً النقود. . . . دون أن تشعر، ستلاحظ في أحد الأيام، أنك لم تعد تعرف أحداً. . . كما لو كنت غريباً، ونزلت لتوك من القطار.

هل تظن أن كل شيء سيعود كما مضى؟

لا أعرف. . . . أحياناً، أظن أنها لحظة سيئة، ستمضي، وأني سأعود للعمل في البناء، أو في الكهرباء، كل شيء، كنت أعمله فيما مضى. . . . إلا أنه في بعض الأحيان يخطر لي أن هذا لن ينتهي أبداً، لأن الأغنياء لا يملكون أي تقدير لهؤلاء الذين يعيشون في البؤس، يسخرون منهم، يحتفظون بغناهم لأنفسهم في منازلهم الفارغة، في صناديقهم الحديدية. ومن أجل أن تحصل على شيء، على الفتات، عليك أن تقتحم عليهم، لتحصل عليه بنفسك.

ماذا تفعل عندما تفكر بأنك أصبحت لصاً؟

ذلك يترك شيئاً ما في داخلي، يخنقني، يذلني، أحياناً، أعود إلى المنزل مساء، في ساعة العشاء، لم يعد ذلك كما كان من قبل، أتناول، فقط، سندويشات باردة، وأنا أشاهد التلفزيون، مع أطفالي

الصامتين. أشاهد زوجتي وهي تحدق في، دون أن تقول كلمة، إلا أن التعب الشديد باد عليها، عيناها رماديتان وحزينتان، أذكر الذي قالته لي في المرة الأولى، حين سألتني عما إذا كان هناك خطر. يومها أجبتها بلا، إلا أن ذلك لم يكن صحيحاً، لأني أدرك أنه في يوم ما، وهذا أمر محتم، سأقع في مشكلة. ثلاث أو أربع مرات جرت الأمور كما لا أشتهي، في أحد المرات، أطلق أناس علي رصاص. ولأني كنت مرتدياً ملابس وقفازين بلون أسود، ولأني كنت ملثماً، لحسن الحظ، أخطأوني، لأني لم أكن مرئياً في عتمة الليل. إلا أنه في يوم ما، سيحدث هذا، إنه محتوم، ربما هذه الليلة، ربما غداً، لا أحد يستطيع أن يعرف. ربما سيلحقني رجال الشرطة، وأبقى سنوات في السجن، أو ربما لن أستطيع أن أركض بسرعة حين يطلقون علي، وسأموت.

في هذه الأشياء أفكر، في زوجتي، لا بنفسي، أنا لا أريد شيئاً، ليس لي أية أهمية. أفكر فيها وفي أطفالي أيضاً، ما الذي سيجري لهم، من سيفكر بهم، على هذه الأرض؟

عندما كنت أعيش في إريسيرا، كان جدي يهتم جيداً بي، أذكر قصيدة، كان غالباً ما يدندنها، أتساءل لماذا أتذكر هذا أكثر من أي شيء آخر، أيمكن أن يكون هذا هو القدر؟ هل تفهم البرتغالية؟ إنها تغنى بهذا الشكل، انصت:

O ladrao.. ladrao

Que vida e tua?

Comer ebeber

Passear plela rua

Eramea meia noite

Quando o larao veio

bateu tres pancadas

A'porta do meio.



الفهـــرس



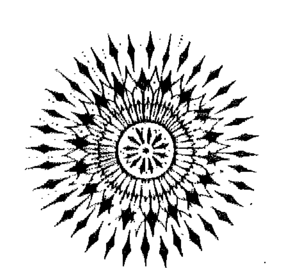
٢٠٠٠ط ١ / ٥ / ١٩٩٧











طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٧

سعر ... القطر ... في الأقطار العربية مايعادل

٣٠٠ ل.س